حركة الكاهنة في المغرب وموقفها من الفتح الإسلامي
(٧٤هـ-٨٢هـ) (٦٩٣م-٧٠١م)

الدكتور محمد بن ناصر بن أحمد الملحم

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الأحساء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمـة :

الحمـد لله مبـدع السموات والأرض، المطلع على الأسرار والخفيات، والصلاة والسـلام على رسـوله محمدٍ الذي جاء بالمعجزات، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات.. وبعد:

فقـد سُلطت الأضـواء على حركـة الفتـوح في هذا الجزء من العالم الإسلامي، ومن بين الدراسات : فتح العرب للمغرب لحسين مؤنس، وتاريخ المغرب الكبير، وتـاريخ المغرب في العصر الإسلامي لعبدالعزيز سالم وتاريخ المغرب العربي لسعد زغلول . . . وكانت حركة الكاهنة إحدى الموضوعات التي تطرقوا لها بالدراسة، لكن ـ فيما أعتقد ـ لم تحظ ببحث مستقل أو دراسة خاصة، فهي ما زالت بحاجة إلى من يكشف الغموض الذي يخيم على كثير من جوانبها، ولعلي في هذا البحث المتواضع أكون ممن أسهم في هذا المضمار الشاق.

ويشمل هذا البحث النقاط الآتية :

- الأولى : تمهيد. وتناولت فيه جهود الفاتحين المسلمين منذ سنة ٢٢هـ/٦٤٢م حتى سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م مع التركيز على وضع المغرب قبيل قيام هذه الحركة.
- الثانية : تحدثت فيها عن شخصية الكاهنة بصفة عامة.
- الثالثة : أشرت إلى عوامل قيام حركة الكاهنة .
- الرابعة : وضّحت فيها موقف الكاهنة من حركة الفتح الإسلامي (الحملة الأولى لحسان الغساني).
- الخامسة : تناولت تقريب الكاهنة بين المسلمين والبربر .
- السادسة : تحدثت عن سياسة الأرض المحروقة .
- السابعة : بيّنت سياسة حسان في جمع المعلومات عن الكاهنة.

- الثامنة : جاءت عن موقف الكاهنة من حركة الفتح الإسلامي (الحملة الثانية لحسان الغساني).
- التاسعة : خاتمة وأوضحت فيها النتائج التي انتهى البحث إليها، والآثار التي ترتبت على هزيمة الكاهنة.

تسير هذه الدراسة على عرض الأحداث ومناقشتها مناقشة علمية واضحة ثم مقارنتها بما قبلها وما بعدها، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأولية من أمهات الكتب التي يعتمد الباحثون عليها، التي من أبرزها: فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم، رياض النفوس للمالكي، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير. . .

وفي ختام هذه المقدمة المختصرة أسأل المولى جل شأنه أن يوفقني في عرض هذه الحركة عرضاً جيداً، ومناقشتها بالشكل الواضح المطلوب، إنه على كل شيء قدير وهو بالإجابة جدير.

تمهيـــد :

وضع المغرب قبل قيام الكاهنة بحركتها :

اتصف فتح المغرب بالصعوبة الشديدة من جانب أهل البلاد ـ البربر ـ ذلك لأنهم ليسوا بعيدين عن أخلاق العرب، فهم أهل نجدة وقوة لايرضون بالضيم ولايرضخون للذلّ، ولذلك نجد ابن خلدون يشير إلى ذلك بقوله: «إن البربر ارتدّوا عن الإسلام اثنتي عشرة مرة، ولم يثبت إسلامهم إلاّ في أيام موسى بن نصير أو بعدها»[1]. بالنظر لعدم معرفة المسلمين بهذه البلاد ومسالكها معرفة تامة، ولأن الدولة الإسلامية كانت تعاني بعض المشكلات الداخلية التي استلزمت بقاء كثير من القوات في المناطق التي تشكل خطراً عليها، فضلاً عن المساعدات المتتالية من الروم والبربر وغيرها من الأسباب.

لكن مع هذه الصعوبة المذكورة آنفاً نلحظ أن فتح الأجزاء الشرقية من هذا المغرب ـ مع ما فيه من المعاناة ـ يُعدُّ أقل صعوبة من فتح مصر، فبالرغم من أن أهل برقة[2] كانوا من قبيلة لواته[3] العريقة في المنطقة، التي كان لها ذكر في مقاومة الرومان والوندال[4] والبيزنطيين، إلا أنهم لم يسببوا لعمرو بن العاص أيّ متاعب، فقد رحّبوا بمقدم المسلمين، كما رحب به المصريون، إذ إنهم قبلوا بالصلح الذي عرضه عليهم، حيث الجزية السنوية دينار على كل بالغ[5].

توجه عمرو بن العاص إلى فتح طرابلس[6]، فحاصرها شهراً لم يقدر منها على شيء، ثم كانت المفاجأة الكبرى، حيث ترك الروم المدينة هاربين نحو سفنهم، ولم يفلتوا إلا بما خفّ حمله من المتاع، بينما استولى المسلمون على ما كان في المدينة[7].

فاجأ بعد ذلك ـ عمرو بن العاص ـ أهل صبراته[8] على غرة فاقتحمت الخيالة مدينتهم صباحاً فلم يتمكن أحد من الفرار[9]. كانت هذه الانتصارات الحاسمة عاملاً شجع هذا القائد على التفكير في الفتح العظيم لأفريقية لذا نجده يبعث إلى

خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يستأذنه في فتحها فيكتب له الخليفة قائلاً: «لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[١٠].

وفي سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م كان الاحتكاك المباشر بين المسلمين والروم في مكان قريب من سبيطلة[١١]، وذلك أيام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) شارك فيها عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم، وعرفت هذه الغزوة عند بعض الكتاب[١٢] باسم غزوة العبادلة[١٣] وقد أحرز المسلمون النصر بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي السرح[١٤] ـ على عدوهم الرومي وقتل قائدهم جرجير[١٥]، بالرغم من أن جيش الروم أضعاف جيش المسلمين عدة مرات[١٦].

بقيت إفريقية منقطعة عن الروم وفيّة بالعهد[١٧] الذي قطعته على نفسها للمسلمين بعد هزيمتها في سبيطلة، حتى إذا جاءت سنة ٣٣هـ/٦٥٣م استنجد جناديوس[١٨] (خليفة جرجير) بالمسلمين. وذهب بنفسه إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، وشرح له أحوال إفريقية، وعظّم له خيراتها وسهّل له أمر فتحها، فبعث معاوية إليها حملة يقودها معاوية بن حديج[١٩]، وما أن رأى الروم القوة الإسلامية حتى انهزموا إلى مراكبهم دون قتال[٢٠]، وبعد ذلك فتح معاوية قلعة جلولاء الحصينة[٢١].

أما عن عقبة بن نافع فقد أخضع أثناء ولايته: الأولى والثانية[٢٢] أجزاء شاسعة من الجنوب التونسي وشماله حتى وصل إلى مدينة باغية[٢٣]، حيث تمت له هزيمة الروم الموجودين بها[٢٤]، ومنها انتقل إلى بلاد الزاب الفسيحة[٢٥] حيث فر الروم ـ من وجه المسلمين ـ إلى الجبال[٢٦]، وهكذا ظل يطوي الأرض الإفريقية طياً حتى وصل طنجة[٢٧] ثم الساحل، وبعد أن عاد ليستريح في تهوذة[٢٨] قتله البربر مع بعض أصحابه[٢٩].

تلاه بعد ذلك قتل زهير البلوي[٣٠]. قتلته عصابة الروم الذين تجمعت حوله في مدينة برقة[٣١]، فكانت فجيعة المسلمين بالقائدين عظيمة، وكان من الطبعي أن تتسرب الأخبار إلى خليفة المسلمين ـ عبدالملك بن مروان ـ ت ٨٦هـ/٧٠٥م ـ الذي

رأى أن يبعث إليهم من يخلصهم من ذلك الكابوس ـ أعني البربر والروم ـ الذي طالما خيم عليهم فترات زمنية طويلة، وكان المبعوث إليهم حسان بن النعمان الغساني، الذي قال فيه الخليفة «ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية منه»[٣٢].

انطلق حسان سنة ٧٤هـ/٦٩٣ ـ ٦٩٤م على أرجح الأقوال[٣٣] بعد أن استراح في مصر سنة واحدة يعد فيها جيشه ويجهزه بالأسلحة القوية، إذ إن الخليفة كان يرى عدم استطاعة المسلمين السيطرة على إفريقية، إلا إذا أعدّ لذلك جيشاً ضخماً مسلحاً بكل أنواع الأسلحة والمعدات، وتذكر المصادر أنه جهّز لهذا الغرض قوة بلغ عددها أربعين ألفاً[٣٤] ـ نظراً لأهمية ما هو قادم عليه ـ وأنه لم يدخل إفريقية قبله أعظم منه[٣٥]، ثم أطلق يده على أموال مصر وقال له: «إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك وأعط الناس»[٣٦].

مضى حسان بجيشه حتى نزل طرابلس الغرب، واجتمع إليه بها من خرج من إفريقية وطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال اللواتي[٣٧]، ثم تقدم إلى القيروان وسأل عن أعظم ملوك إفريقية فقيل له صاحب قرطاجنة[٣٨]، فسار إليها مسرعاً وقاتل من بها من الروم والبربر حيث قتل منهم كثيراً مما دفع بهم إلى الهروب عن طريق المراكب، فبعضهم اتجه إلى جزيرة صقلية[٣٩] بينما اتجه الآخرون صوب الأندلس، فدخل حسان مدينتهم بالسيف وأخذ كثيراً مما وجد فيها من خيرات ومتاع[٤٠]، ويفيد كلام ابن الأثير أن حساناً لم يتأخر كثيراً في قرطاجنة لأن أهلها فوجئوا به فقاتلهم قليلاً ثم طلبوا النجاة وتركوا المدينة لقمة سائغة لحسان والمسلمين، حيث دخلها دون عناء كبير، وهي لا شك خطة حربية سار عليها أهل قرطاجنة، يدلنا على ذلك عودتهم بعد فترة قريبة إليها ـ بعد أن سمعوا أن حساناً رحل عنها إلى القيروان ـ ومبادرتهم بإصلاح حصونها وأسوارها التي تهدمت ولكن هذه الحيلة لم تنطل على رجل مثل حسان، فلقد «سارع بالعودة إليها مرة ثانية ودخلها بالسيف فقتل وسبى وأخذ الغنائم»[٤١] ثم أمر بتخريب جزء منها لا تخريبها كلها كما ذكر ابن عذاري[٤٢]، وهذا ما يمكن أن يتناسب مع ما سنراه من أحداث لاحقة، فسيمر بنا أن الروم سيلجأون إليها مرة أخرى، وهذا ما يفهم من قول «فهدم المسلمون ما أمكنهم منها»[٤٣].

ويتضح من خلال تولية هلال اللواتي ـ وهو بربري مسلم ـ قيادة قوة من المسلمين أن العرب المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب، كما يدل على أن بعض البربر اطمأنوا للمسلمين.

وقد تنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم ما زالوا على شيء من القوة والكثرة في كثير من المناطق المحيطة بقرطاجنة، وأنه ما زالت هناك مدائن وحصون يحتمون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة[٤٤] وبنزرت[٤٥] فسار إليهم وقاتلهم وصبر المسلمون في ذلك، فانهزم الروم وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون بلادهم، فلجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة[٤٦] فتحصنوا بها، بينما تحصن البربر بمدينة بونة[٤٧]، وعاد حسان إلى القيروان[٤٨].

لقد أصاب حسان في محاربة هؤلاء من البربر والروم فما كان له أن يتيح لهمُ فرصة التآمر عليه وعلى المسلمين، فهم لو تركوا يعملون حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم، لاستعادوا ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ولربما أجبروا المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن التنبؤ بنتائجها، ولكن أقل ما يصاب به المسلمون الخسائر الفادحة في الأرواح والأموال، ووجود مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز هذا الفتح، كما أن قراره حين عقد عزمه على العودة مع الجيش الإسلامي إلى القيروان كان صائباً، فما كان له أن يكمل الطريق وهناك جراح كثيرة في الجيش المسلم الذي عانى معاناة شديدة من جراء دخوله تلك الحروب المتعددة، فمن حق الجيش أن يأخذ قسطاً من الراحة، كما أن من حق الجرحى أن يعالجوا حتى تبرأ جراحهم، ولا بد من النظر والتمعن في القضايا الإدارية.

وهكذا نجح حسان في تحطيم معاقل الروم على ساحل إفريقية، وكان لانتصاراته على الروم دوي شديد، فقد رفع من هيبة الدولة الإسلامية حتى أصبح الروم منها في خوف وشعروا بقرب نهايتهم، لذا بدأوا يخططون كيف يستعيدون قوتهم كما كانت قبل

ذلك، وهذا لن يكون أبداً إلا بمتابعة أخبار المسلمين وقائدهم أولاً فأولاً ، حتى إذا ما وجدوا ثغرةً يمكنهم الولوج من خلالها لضرب المسلمين استغلوها واستفادوا منها.

تلك أخبار المغرب وأحوالها قبيل قيام الكاهنة بحركتها، فلقد رأينا كيف تشتت شمل التحالف البربري الرومي بعد أن كانوا صفاً واحداً ضد الدولة الإسلامية فقسم منهم اتجه إلى باجة والآخر سار إلى بونة، وبهذا تكون سياسة حسان قد نجحت في مقابلة أعدائه منفردين كل على حدة، ومن الطبعي أن يواصل هذا القائد تلك السياسة حتى يتم إخضاع ما تبقى من بلاد إفريقية، لذا استلزم الأمر أن يتجه إلى الأمام ويسأل عمن بقي من ملوك إفريقية يخافه الروم والبربر. . . ؟ فيقال له الكاهنة.

شخصية الكاهنة[٤٩]:

(أ) أصل الكاهنة وصفتها:

يعتقد «ليبو» أن الكاهنة لا وجود لها أصلاً ويقول «إنها ليست إلا البطريق يوحنا نفسه، أظهره المؤرخون في شكل امرأة، لأنه كان خصياً» وهذا الكلام فيه نظر! : «لأن البطريق المذكور شخصية قائمة بذاتها جعله الامبراطور ليونتيوس قائداً لحملة كبيرة جهزها ضد حسان الغساني (ت ٨٦هـ/٧٠٥م) بعد سقوط قرطاجنة في يده وتخريبه لها سنة (٧٨هـ/٦٩٧م)، فضلاً عن أن الشخص المنقول عنه هذا الرأي ذكر بأنه لم يقل ذلك»[٥٠].

لكن هل الكاهنة اسم لها أم لقب أطلق عليها ؟

الحقيقة أن الكاهنة لقب أطلق على تلك الشخصية، نظراً لخبرتها بالسحر وفراستها في التنبؤ بما يقع من الأحداث[٥١]/[٥٢]ويبدو أن اسمها الأصلي هو: داهيا[٥٣] أو دهيا[٥٤] بنت ماتية بنت تيفان بن بارو بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراد[٥٥]، في حين سماها ابن أبي دينار[٥٦] على قول ضعيف «دامية بنت ينفاق» وبرعت في علم السحر والكهانة، لأنها تستوحي علم ما غاب عنها[٥٧]، ولقد كانت هذه المرأة قوية الإرادة شديدة البطش، فلقد وصلت بها تلك الإرادة إلى أنها تحكم معظم البربر الموجودين في الناحية الشمالية من إفريقية[٥٨]، لكنها بالتأكيد لم يخضع لها

المغرب كله كما ذكرت بعض الروايات[٥٩] التي تقول «إن قتلتها دان لك المغرب كله، ولم يبق لك مضاد ولا معاند[٦٠] وقد أضفت على نفسها ـ من طريق الكهانة ـ صفة البركة والولاية، فكان العامة يعتقدون فيها ذلك، وقد أمكنها أن تهيمن على عقولهم من هذا الطريق ـ طريق الدجل والشعوذة[٦١] ـ واستمدت قوتها عن طريقين: الأول: البربر. وهم قومها من قبيلة جراوة التي انحدرت الكاهنة منهم، والتي آلت إليها (إلى جراوة) زعامة البربر[٦٢]، كما استمدتها من الآخرين الذين انضموا إليها ـ على حد قول الناصري[٦٣] بعد مقتل كسيلة البربري ـ من بني يفرن وقبائل زناتة وسائر البتر[٦٤].

الثاني: الروم. حيث كان بينها وبينهم نسب ومصاهرة، فيلحظ أنه كان لها أكثر من زوج، ومن بينهم رجل يوناني أنجبت منه غلاماً كما أفاد بهذا ابن عذاري[٦٥]، مما يحتمل معه أن يكون الروم قد أعانوها على تثبيت مركزها، أو أن بعضهم ربط مصيره بمصيرها، وكان مستقرها الأصلي بجبل أوراس[٦٦] ولعلها اختارت هذا الموقع على غيره لانفصاله عن الجبال الأخرى حيث عرف عن سكان تلك الجهات أنهم لا يرغبون أن يتعرف أحدٌ ـ مهما كان ـ على مسالك جبالهم، اتقاءً من أعدائهم المسلمين، ومن الأمراء المجاورين لهم[٦٧]. وحين علمت بمسير حسان إليها هجرت هذا المكان إلى جهة أخرى.

(ب) عقيدة الكاهنة:

من الضرورة بمكان أن نسلط الضوء على معتقد هذه الكاهنة، لنستشف خلاله بعض أهدافها، فلقد أشار المالكي في هذا الشأن إلى أنها كانت على الديانة الوثنية ـ عبادة الأصنام ـ ويستشهد على قوله هذا بوجود صنم عظيم من خشب عندها[٦٨]، فهي تحمله بين يديها على جملها الخاص بها، بينما أظهرت أخرى أنها كانت يهودية[٦٩]، ورغم ما هو معروف من أن الأفكار اليهودية عرفت بالمغرب منذ القديم[٧٠]، إلا أننا لا نجد من يوضح ذلك في المصادر الأصيلة التي بين أيدينا، مما لا نستبعد معه أن تكون هذه الكاهنة على الديانة الوثنية، خاصة وأن مسألة تقديس الأصنام قد انتشرت في أجزاء من أفريقية وبعض الجزر المجاورة لها، فها هي الكاهنة تحمل على جملها

الخاص بها صنماً، وها هو القائد عبدالله بن قيس[٧١] يفتح صقلية ويصيب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكللة بجوهر[٧٢]. وها هم بعض قبائل ودان[٧٣] يعبدون صنماً من حجارة مبنياً على ربوة تسمى كرزة، يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون في أموالهم[٧٤]، بل إنَّ هناك مدينة أسسها الأفارقة قديماً في سهل بين جبال عديدة على ممر الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا، ويعني اسمها منبع الأوثان[٧٥].

(جـ) أبناء الكاهنة :

أشارا إلى هذه الجزئية ابن خلدون والناصري وقالا «إنه كان لها ثلاثة أبناء»[٧٦] بينما ذكرت بقية المصادر أن لها ابنين فقط[٧٧]، لكن ماذا عن أسمائهم وأعمارهم، وهل كان لهم دور في هذه الحركة المذكورة؟

الحقيقة لم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا ـ إلا بجزء يسير جداً عن هذه الناحية، ذكرت خلاله أن أحد الأبناء كان من زوج يوناني[٧٨]، فهو بالتالي غلام يوناني وأمه ـالكاهنة ـ بربرية، أما ما قيل إن الكاهنة أرسلت ابناً لها بربرياً على أثر عقبة، كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة[٧٩] فهذا يبدو واضحاً أنه ليس ابنها بل هو كسيلة نفسه[٨٠]. الثاني : كان والده رئيساً من رؤساء قبيلة جراوة[٨١]، وهذا ـ مما لا شك فيه ـ الابن البربري، أما عن الابن الثالث فقد أغفلت المصادر ذكره مما يحتمل معه أن يكون هو الابن العربي المسترضع (خالد بن يزيد القيسي)[٨٢]. ولعل ابن خلدون حينما أشار إلى وجود ثلاثة أبناء يقصد به ـ يعني الأخ الثالث ـ هذا الابن العربي، إذ إنه أصبح أخاً ثالثاً لهما ـ أعني للأخوين البربري واليوناني ـ بعد سياسة الاسترضاع التي سنشير إليها لاحقاً.

أما عن اسميهما فقد ذكر الرقيق[٨٣] أن اسم أحدهما قويدر والآخر يامين[٨٤]، مما يحتمل معه ان الاسم الأول هو للابن البربري، والآخر هو لليوناني (الرومي) هذا وإن كانوا صغار السن إلا أنه لا يعني أن أمهم استبدّت بهما كما تروي المصادر[٨٥] لأن ما سيمر بنا من أحداث بعد ذلك يدل على أنها كانت شديدة الحب لهما، وليس أدل على ذلك من أنها طلبت من أبنائها حين أحدق الخطر بهم جميعاً أن يتجهوا إلى حسان الغساني (قائد المسلمين) ويستأمنوا إليه[٨٦] ولم يكن لهؤلاء الأبناء دور ملحوظ في حركة

الكاهنة سوى ما أظهره الأخير ـ خالد القيسي ـ من سياسة مخالفة لهوى الكاهنة وهي سياسة إيصال الأخبار المفصلة عن الكاهنة وقومها ـ أولاً فأولاً ـ إلى قائد المسلمين آنذاك.

أما فيما بعد هذه الحركة، فسنرى أن حساناً يعقد لهذين الابنين ـ البربري واليوناني ـ ألوية يشاركان بها المسلمين في رفع راية الإسلام، ومقاومة الكفر والعدوان وأهله من البربر وأعوانهم، وسيكون لهما أدوارٌ عظيمة.

عوامل قيام حركة الكاهنة :

يذكر ابن الأثير نقلاً عن الواقدي «أن الكاهنة خرجت غضباً لقتل كسيلة» وهذا لا يعني الجزم بوجود علاقة بينهما، لأن ثورة كسيلة هي مقاومة البرانس المستقرين، يعززهم الروم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية، ودفاعهم كان عن النواحي العامرة. . . وهي ثورة مدبّرة، فيها معنى الانتقام لما أصاب كسيلة على يد عقبة بن نافع في حين أن ثورة الكاهنة كانت ثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة، وطال عهدها بالاستقلال لضعف الحكام البيزنطيين، وعجزهم عن اخضاع البتر في الصحاري والهضاب(٨٨)، ثم إن المصادر التي بين أيدينا لم تتعرض لأخبار هذه الكاهنة إلا بعد أن تقدم القائد حسان الغساني إليها، وهذا يفيد أن هذه المرأة كانت آمنة مطمئنة تمارس حرفتها ـ الكهانة ـ بحضرة البربر، فتأتي لهم بأخبار مستقبلية صادقة في معظمها مما دعاهم إلى الاجتماع حولها، حيث كثر عدد من جاء إليها، فالبربر بعد مقتل كسيلة، وبعد تفريق حسان لهم بدأوا يفكرون في إيجاد قائد لهم يجمعهم ويستعيدون به قوتهم التي فقدوها بين عشية وضحاها، فلم يجدوا أمامهم ذلك الحين سوى الكاهنة التي جذبتهم بأخبارها وشعوذتها، ومن الممكن أن يكونوا (أي البربر) عرضوا عليها قضيتهم، وطلبوا منها أن تتكفل بحلها في أقرب وقت ممكن، وبما أنها امرأة بربرية ويهمها مصلحة قومها البربر والحفاظ عليهم كان موقفها من ذلك إيجابياً.

ولابد أنها درست الموضوع من جميع جوانبه، فوجدت أن هناك هدفاً واحداً يجمع

بينهم وهو القضاء على القوة الإسلامية الموجودة في إفريقية، فضلا عن وجود عامل مهم في حد ذاته وهو أنها أرادت أن تحافظ على سلطانها السياسي بين قومها البربر، وهـذا السلطان ربما يزول ـ في اعتقادها ـ إن أظهرت الجبن والخوف من المسلمين بحضرة الـبربر، وأنه سيعلو بلا شك ويرقى ـ إلى درجة أنها ستكون سيدة إفريقية وزعيمة تلك الجبال بما تضمه من أقوام ـ إن هي تصدت لحسان والمسلمين، لذلك كله قررت الوقوف إلى جانب هؤلاء البربر قلباً وقالباً، ولكنها ربما أحسنت النية في حسـان وقـومه حتى اللحظة الأخيرة، فلم تبدأهم بالقتال، وإنما طلبت من قومها الانتظار، حتى إذا أحسوا بحركة من المسلمين ضدهم فلن يترددوا في الدفاع عن أنفسهم. والأصل في الكاهنة أن تكون معادية للإسلام والمسلمين باعتبار أنها تدين بالوثنية كما ذكرنا.

إذاً نخلص إلى أنه ليس هناك ثمة عوامل واضحة ذكرتها المصادر مهدت لقيام تلك الحـركـة المـذكـورة، لكن الذي يظهر أن الكاهنة منذ فتح المسلمين لإفريقية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م حتى وصـول حسان إليها سنة ٧٤هـ/٦٩٣ ـ ٦٩٤م كانت تراقب تحركاتهم بعين القلق والخوف، لأجل ذلك وحين تتابعت حملات المسلمين على إفريقية وخاصة حملة معاوية بن حديج الثانية سنة ٤٧هـ/٦٦٧م. ـ حيث كان عمرها آنذاك ٩٢ سنـة ـ أوحت إلى أتبـاعها بالخطر الذي يحدق بهم من جراء تلك الحملات، وطلبت أن تكـون حاكمـة عليهم، فوافقوا على ذلك تقديراً لمكانتها فيهم، إذ إنها تكفلت بإيصـال الأسرار إليهم أولاً فأولاً فاعتقدوا إنها ستحميهم مما يتهددهم، ووضعوا فيها الثقة العمياء وأخذت تحقق رغباتهم من حيث الاستعدادات من كل جانب، وهذا ما يفسر كلام ابن عذاري «فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يبلغ بالاستقصا»(٨٩).

ولا أظنها بعد ذلك إلا أنها حركة خطيرة ضربت جذورها في أعماق التاريخ أو حتى لا نبالغ في القول بدأت مع بدء حكمها للبربر ـ من جراوة ـ أما أنها لم تتحرك مع قومها إلا بعد اتجاه حسان إليها، فهذا لا يمنع أنها كانت تلك الفترة تكمل استعداداتها وتتروى لينضم إليها أكبر عدد ممكن من البربر، وهذا ما يمكن أن يفهم من قول ابن

عذاري «فرحلت في عدد لا يحصى»[٩٠]، كما أنها لم تكن أصلاً ترغب في بدء إعلان الحرب من جانبها لأنها لا تريد حكومة فعلية بالسيطرة على جميع جهات إفريقية، بل كان يهمها أن تحافظ على حكومتها من الناحية الاسمية، وهذا ما نلحظه من خروجها متأخرة بعد إعلان حسان الحرب عليها، فهي امرأة تحب العافية والسلامة والاستقرار، في الوقت الذي لا ترضى فيه لأحد أن يمس كرامتها بشيء يذكر، لذا نجدها فضلت القتل على الفرار في نهاية أمرها[٩١].

موقف الكاهنة من حركة الفتح الإسلامي (حملة حسان الغساني الأولى).

إذا أردنا أن نقف على حقيقة موقف الكاهنة من هذه الحملة المذكورة فلا بد أن نتعرف أولاً على طبيعتها (أي الحملة) فالقائد حسان لم يكن يعلم أصلاً بأمر تلك المرأة، لولا أنه سأل مستشاريه عمن بقي في أرض إفريقية من أعظم الملوك ليدعوه إلى الإسلام كما هي السنة في القتال عند المسلمين لا يبدأونه إلا بعد عرض الدعوة بالحسنى أولاً، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[٩٢]، وإن لم يسلموا دعوهم إلى أن يُسلّموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ويبقوا على دينهم - إن شاؤوا - ويدفعوا الجزية[٩٣] السنوية، فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول في حكمه ولا دفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا.

الملاحظ أن هذه المرأة خضع لها البربر القاطنون بجبل أوراس، كما أطاعها البربر الذين هربوا من وجه حسان الغساني كما ذكرنا، أما عن الروم فلابد أنهم خائفون منها، لأنه ليس هناك من قوة تفوق قوتها، لكن هذا لا يعني عدم وجود ملوك آخرين لهم سطوة وجبروت في غير ذلك الجبل المذكور، وهذا ما نلمسه من كلام ابن عذاري «فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون»[٩٤]، ولكن أعتقد أن ابن عذاري بالغ حين قال:

«وإن قتلتها دان لك الغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند»[٩٥] لأن الأحداث التي تلت ذلك لا توحي بهذا الشيء.

ما من شك في أن هذه الكاهنة كانت لها مكانة مرموقة في نفوس البربر وغيرهم من الروم، ولكنها ـ بلا شك ـ لم تكن مرهوبة الجانب في كافة أنحاء البلاد، ولعل أقرب أقوال هؤلاء المؤرخين إلى الصحة ما ذكره ابن خلدون يصف حال البربر بعد استشهاد زهير البلوي «واضطربت إفريقية ناراً وافترق البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاهنة داهيا ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم»[٩٦]. فهذا تصوير صحيح يضع الأمور في نصابها ويجعل الكاهنة زعيمة على جراوة فقط[٩٧]، وإن كانت محترمة ولها مكانتها عند الجميع.

وكان أمراً طبيعياً أن يكون لهذه الكاهنة موقف إيجابي من هذه الحملة المذكورة فكان عليها أن تفعل شيئاً حسب ما وعدت به أنها ستتكفل بحمايتهم ورد حقوقهم وحل مشكلتهم، ولكن لا تطالب بإقامة دولة أو امبراطورية، بل يكفيها أن تحرز الانتصار وترد للبربر اعتبارهم.

رسمت هذه المرأة لنفسها خط السير الصحيح، واتجهت بقومها إلى المدخل الرئيس للأوراس وهو باغاية، وأخرجت من فيها من الروم ثم هدمتها حتى لا يفكر حسان والمسلمون أن يتخذوه حصناً لهم يحاربون الكاهنة منه، لكن حساناً مرّ على ذلك المكان، ولم يفكر أن يستعين به أو يتخذه حصناً كما ظنت الكاهنة، بل سار مع المسلمين حتى حطوا رحالهم عند وادي مكناسة فقيل له «إنها قد أقبلت في عدد لا يحصى» فقال: «دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه»[٩٨] فمالوا إلى نهر نيني[٩٩]، فنزل عليه[١٠٠]، وزحفت إليه الكاهنة، حتى أتت أسفل النهر، ودنا الطرفان من بعضهما، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار[١٠١]، وبات الفريقان على مصافّهم فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً وعظم البلاء، وظن الناس أنه الفناء، فانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من المسلمين خلق كثير، فسمي ذلك اليوم يوم البلاء[١٠٢] وسمي ذلك النهر الذي التقوا عليه نهر البلاء[١٠٣] وهذه التسمية أطلقت عليه فيما بعد تنويهاً إلى ما أصاب المسلمين في المعركة، كما سمي كذلك بوادي

العذارى[١٠٤] نسبة إلى مقتل زهرة شباب المسلمين، بينما يسميه ابن الأثير نينى[١٠٥] والظاهر أنه أحد روافد نهر مسكيانه وهو الاسم الصحيح كما في ابن عذاري[١٠٦].

تبين أن البربر يحبون الحرب في الأرض المفتوحة بالحراب والسيوف . . . وما إلى ذلك، وقد اضطر حسان إلى الدخول في معركة نينى علماً بأنه مازالت آثار حملة قرطاجنة وما تلاها مؤثرة فيهم، ثم لا ننسى أن البربر كانوا قد خاضوا غمار حروب عديدة ضد البيزنطيين مما جعلها تترك فيهم بالغ الأثر من ناحية التدريب العسكري وسياسة اللقاء في الميدان وما نحوه من أمور تتعلق بالحرب، ناهيك عن الحماس الذي بثّته الكاهنة في نفوس البربر، حيث أخذت توحي لهم بأن المسلمين ليس لهم حق في أخذ بلادهم والسيطرة عليها، وطلبت منهم أن لا يسمحوا لهم باجتياز الأوراس أو إخراجهم منها، وأخذت تحفّزهم بأشكال عديدة كما أن العدد الذي تحرك مع حسان في هذه الحملة الأولى لم يصل إلى أربعين ألفاً حسب ما وصفته المصادر[١٠٧] ولكن ربما اختلط على كثير من المؤرخين، ذلك فنسبوا هذا العدد إلى الحملة الأولى وهو إنما في الغالب للحملة الثانية[١٠٨]، وأنه ليخيّل أن عدد جيش الكاهنة قد فاق عدد المسلمين الذين مع حسان وهذا يفهم من ظاهر المقولة التالية: «فأقبلت الكاهنة في عدد لا يحصى . . .» اجتمعت هذه العوامل مع بعضها وجعلت من البربر قوة شديدة وعظيمة مع أن المسلمين كانوا هم الأقوياء بعقيدتهم الراسخة وصبرهم العظيم، ولكنهم هذه المرة استهانوا بعدوهم، فلم يبذلوا الجديّة الكاملة في القتال معه، فهم اعتقدوا ان الانتصار على البربر ـ خاصة وأن القائمة عليهم امرأة كاهنة ـ سهل جداً فلا يستبعد أن يكونوا قد احتقروهم وهذه القيادة المتمثلة في تلك المرأة[١٠٩]، هذا وإن صحّ هذا التقدير فهم يكونون بذلك قد وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً[١١٠].

اقتصرت الكاهنة على هزيمة حسان والمسلمين، فلم تتقدم إلى القيروان بل طاردت المسلمين حتى أخرجتهم من حدود إفريقية من جهة قابس واطمأنت على سلطانها منهم، لكن لماذا لم تستغل هذه المرأة هذا الانتصار وتلحق بالمنهزمين إلى القيروان؟

لا يخفى علينا أن الكاهنة لم تكن تنوي إقامة دولة عظيمة لها وهذا ما دفع بها إلى أن ترضى بالنتيجة التي وصلت إليها مع البربر. الأمر الآخر: تعتبر القيروان القاعدة الأمامية للفتوح الإسلامية في المغرب، وهي التي بها عسكر المسلمين وأهلهم مرابطون، يستعين المسلمون بهم في حالة الحاجة إليهم إذا ما انتقض البربر ورجعوا عن الطاعة وأعلنوا العصيان، فهي بالتالي مركز لنشر الإسلام جرياً على السياسة التي ابتدأها المسلمون في المشرق عندما أنشأوا الكوفة والبصرة في العراق ثم الفسطاط في مصر، لذلك كانت تعلم ـ الكاهنة ـ أن ملاحقة حسان والمسلمين إلى القيروان ستشعل الحرب ضدّها فالخلافة الإسلامية لن تقف أمام هذا التصرف ـ لو حصل ـ مكتوفة الأيدي، بل ستثور لانقاذ المسلمين بجحافلها لتنتقم من تلك الكاهنة، لأنه لو حدث مثل هذا التطور لكان قاصمة للظهر واجهاضاً لجميع الجهود التي بذلها القادة المسلمون في سبيل رفع راية الإسلام في تلك الجهات الإفريقية.

أما عن حسان فهو عندما وجد أن القتل استمر في المسلمين أراد أن يحقن دماء الباقين ويستعيد قوته من جديد، وهذا لن يتأتى بين عشية وضحاها أو في داخل الميدان وإنما بالتراجع إلى الوراء ثم بالاستشارة للخليفة في أمر هذه المشكلة التي حلّت بهم، ولذلك كتب إلى عبدالملك بن مروان يقول له: «إن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية، كلما بدات أمة خلفتها أمم، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم»[١١١] فرد عليه جواباً يأمره فيه بالإقامة في المكان الذي يأتيه فيه الكتاب[١١٢].

خرج حسان من القيروان بعد ما ترك عليها رجلاً يسمى أبو صالح[١١٣] واتجه إلى برقة حيث جاءه هناك كتاب الخليفة، فأقام بها وبنى فيها قصوراً سميت باسمه فيما بعد[١١٤]، في حين عادت الكاهنة إلى قاعدتها الأساس في جبل أوراس بعد ما أسرت في معركتها ـ مع المسلمين ـ ثمانين رجلاً منهم[١١٥]، وبذلك لا نخطىء إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد، لا حركة انتفاض تام وكان حسان يفهم مثل هذا[١١٦]، لذا أقام في برقة ينتظر المدد من الخليفة وينظم أموره هناك[١١٧]، لكنه لم ينس المسلمين الموجودين في القيروان بل أخذ يترفق

في سيره أثناء مغادرته لها حتى يستطيع من نجا من أصحابه أن يلحقوا به[١١٨]، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في القيروان غير محاربين.

الكاهنة ومحاولة التقريب بين المسلمين والبربر:

أحست الكاهنة ـ بعد تحقيقها النصر على حسان والمسلمين ـ بالغرور والكبرياء، ولقد دفعها هذا الشعور إلى الاعتقاد بأن المسلمين أصبحوا بعد ذلك في حاجة ماسة إلى استرضائها، والتودد إليها، خاصة بعد أن وقع تحت سيطرتها ثمانون أسيراً منهم، وبناءً عليه أرادت أن تضرب ضربتها وتجعل لنفسها مكانة عند المسلمين عن طريقين:

الأول: أن تحسن معاملة هؤلاء الأسرى الذين أصبحوا في حكم الرهائن لديها.

الثاني: تطلق سراح هؤلاء الأسرى بعد فترة زمنية قصيرة، وهدفها من ذلك أن يكونوا شافعين لها عند المسلمين ـ لإسدائها هذا المعروف لهم ـ إذا ما دارت الدائرة عليها في يوم ما، وحتى تؤكد على الإبقاء على حياتها وحياة ابنيها أقدمت على تطبيق سياسة التقريب بين المسلمين والبربر، والتي جاءت بعد نهاية المعركة الأولى ـ التي دارت بينها وبين حسان ـ حيث تصوّرت أنه هو الحل المناسب لعملية الرابطة بين الطرفين. ولكن كيف حدثت هذه المؤاخاة؟

لقد أقدمت هذه الكاهنة على تنفيذ عملية الرضاعة ـ حسب الطريقة التي اعتاد جماعة البربر عليها ـ وكانت الكاهنة قد أسرت ثمانين رجلاً من المسلمين ثم أطلقتهم إلا واحداً منهم يسمى خالد القيسي، كان قد أعجبها جماله، فهو وسيم الوجه حسن الطلعة، كما أعجبها شجاعته ورجاحة عقله، وقد أرادت أن يكون لها محرماً لتتمكن من التحدث إليه كابن لها وهي له كأم ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع، فقالت له: أريد أن أرضعك لتكون أخاً لولدي. فقال لها: كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع؟ فأجابته: إننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه، ثم عمدت إلى سويق من دقيق الشعير فلتته بزيت ثم جعلته على ثدييها، ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع «خالد» من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت، فقالت لهم: أنتم أخوة من الرضاع[١١٩].

تذكر بعض المصادر أن الكاهنة حين أسرت الثمانين رجلاً أحسنت إسارهم إلاّ رجلاً واحداً[١٢٠]، بينما تقول أخرى أنها أساءت إلى الأسرى الذين لديها إلا رجلاً واحداً[١٢١].

أما القول الأول فيتبين من ظاهره أنها أساءت إلى ذلك الرجل ـ خالد القيسي ـ وهذا ما لم يحدث ألبتة! لأن مجريات الأحداث تقول أنها ـ الكاهنة ـ أحسنت إلى من بقي لديها أسيراً، ويكفينا دليلاً على ذلك مسألة الرضاعة التي أقدمت عليها.

في حين أن القول الثاني لا يمكن تصوره أبداً إذ إن الأسرى المسلمين ـ الذين بين يديها ـ عاشوا تلك الفترة منعمين، فهم لم ينقلوا لحسان بعد عودتهم إليه شيئاً يذكر عنها، والمفهوم أنها ـ الكاهنة ـ لا تبعد عن كسيلة البربري، فهي لا تُكنّ ـ أصلاً ـ للمسلمين الحقد أو الكراهية، إن لم نقل أنها كانت تحترمهم وتعرف قدرهم في قرارة نفسها على الأقل، وهذا لا يتعارض مع ما كانت قد عزمت عليه من الوقوف إلى جانب بني جنسها البربر ضدّ حسان وأتباعه في حالة اعتدائهم عليهم.

ويجب أن لا نتجاهل شيئاً مهماً وهو: أن الإحسان إلى الأسرى من تقاليد البربر العريقة، إذ أنهم دأبوا عليها في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن الكاهنة إليهم بعد معركة نيني؟ زيادة على هذا كان لوجود ـ خالد القيسي ـ إلى جانب الكاهنة أعظم الأثر في عملية الإحسان إلى الأسرى، والحقيقة ما ذكرها ابن عبدالحكم وهي أنها أحسنت إسار من أسرتهم ثم أرسلتهم إلا رجلاً واحداً منهم[١٢٢]، وهذا ما يمكن أن يتناسب مع ظاهر الأحداث.

ولنا أن نتساءل عن موقف هذا الأسير ـ خالد ـ من هذه الحركة (الرضاعة) التي أقدمت على تطبيقها هذه المرأة العجوز؟

من المؤكد أن خالداً كان يعلم بطلان هذا الرضاع! لأنه لا يتوافر فيه شيء من شروط الصحة[١٢٣]، فهو لم يكن أصلاً في السنتين الأوليين من بعد الولادة، لأن خالداً لم يجتمع بالكاهنة المذكورة إلا بعد ما شبّ وأصبح يافعاً وراشداً وقائداً مجاهداً كما هو ملاحظ وهذا في حد ذاته كافٍ لإبطال حركة الرضاع التي نفذتها الكاهنة،

فضلاً عن أنه لم يكن ذلك من لبن تلك المرأة نفسها ـ ولعل ذلك هو الدافع لخالد إلى أن يستغرب ويقول: كيف يتم ذلك وقد ذهب منك الرضاع ـ بل كان عن طريق آخر وهو الشعير الملتوت بالزيت.

لكن خالد حينما رأى أن المصلحة تقتضي موافقته.. وإن كان بغير اقتناع ذاتي منه ـ أظهر موافقته من غير تردد، فهو لا ينسى أولاً وأخيراً أنه أسير «لدى تلك المرأة، وقد يكون مصيره القتل إن رفض تنفيذ أوامرها، وأحسبه ـ والله أعلم ـ تأمل الموضوع فوجد أن طاعته للكاهنة سيكون الجسر الحقيقي الذي يعبر المسلمون عليه إلى هذه المرأة البربرية، فهو إذا كان بين يديها سيكون عيناً للمسلمين على عدوهم من البربر، وسيعرف نقاط الضعف التي تعاني الكاهنة منها، ليس هذا فحسب بل وسينقل تلك الأسرار إلى مسامع القائد حسان، وهذا ما سنتبينه بعد ذلك، ولذا بدل أن تكون سياسة الإرضاع أداة تعمير أصبحت أداة هدم وتدمير للكاهنة ولمن معها من البربر، ويمكن أن نعتبر هذه السياسة بداية النهاية التي اختارتها الكاهنة لها ولقومها.

سياسة الأرض المحروقة :

اهتدت الكاهنة إلى سياسة جديدة خرقاء، اعتقدت معها أنها هي السياسة المثلى لإبعاد المسلمين عن بلادها، هذه السياسة هي: تدمير كل المباني الموجودة في أرض إفريقية من حصون وقلاع ومدن، وقطع للأشجار بما فيها من ثمار متنوعة، لأنها كانت تظن أن الذين يغزون بلادها لا يريدون سوى هذه الخيرات والثروات والمدن بما فيها من ذهب وفضة(١٢٤).

وبناء على السياسة العقيمة التي استحدثتها هذه المرأة أصدرت أوامرها للبربر الخاضعين تحت لوائها وقالت: «لا أرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر»(١٢٥). ثم بدأت في تنفيذ هذه الحركة عملياً، حيث وجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويحرقون الغابات والأحراش ويهدمون القرى والمدن، وكانت إفريقية قبل ذلك بساتين مزروعة ومروجاً خضراء وقرى متصلة ومدناً منظمة من طرابلس إلى طنجة ولكن عمالها البربر

الذين أطاعوها أتوا على كل ذلك وأعدموه[١٢٦]، حتى إنه ليقال: كان بإفريقية في القديم مائة ألف حصن ما بين قصر ومدينة، فإذا أراد ملكها الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار، فيجتمع له مائة ألف فارس ومائة ألف دينار ولا ينقص من بلده شيء[١٢٧].

لا خلاف في أن الكاهنة أخطأت في هذا التقدير، لأن الهدف الوحيد من حركة الفتوح الإسلامية نشر الدين الإسلامي في سكان تلك المناطق، أما ما قالته عن المسلمين وحرصهم على الأسلاب والغنائم فهو غير صحيح، لكن حين يفتح الله على أيدي المسلمين مدينة أو مدناً تصبح غنائم الجيش المهزوم وأسلابه حقاً كاملاً للمسلمين، فالمسلمون لم يضعوا في قرارة أنفسهم يوماً من الأيام أنهم ينطلقون إلى تلك الجهات أو غيرها بحثاً عن المدائن والمزارع كما تدعي الكاهنة! لأن شبه الجزيرة العربية - في معظم بقاعها - منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا غنية بهذه الأشياء وليسوا بحاجة إلى البحث عنها في تلك المناطق النائية.

باتت سياسة التخريب التي اتبعتها الكاهنة موضع جدل بين الكتاب الأوربيين، فبروفنسال يؤيد مقالة (جاتو Gateuu) ويقول إنه «من الواضح أن نسبة هذا العمل - الذي يخالف طباع البربر - إلى الكاهنة لا بد أن تكون محل شك، ولا ريب أن المسلمين - وهم المسؤولون الحقيقيون عما أصاب إفريقية من خراب البلاد الاقتصادي الزراعي - هم الذين نسبوا إلى بطلة الأوراس هذه الجريمة التي لا بد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد»[١٢٨].

للقتال في الإسلام آداب منها ما أوصى به سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه جيش أسامة حين بعثه إلى الروم حيث قال لهم «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتيكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها..»[١٢٩].

وما نريد قوله هو أن هذه الوصية حملها القادة المسلمون بعد أسامة بن زيد بأمانة واخلاص شديدُين، ونفذوها بحذافيرها كاملة، ولعل هذا هو السر الوحيد الذي جعل المسلمين ينتقلون من نصر إلى نصر حتى أظهر الله هذا الدين ـ على أيديهم ـ ورفعه على بقية الأديان الأخرى، فكيف يكون المسلمون بعد ذلك هم المسؤولين الحقيقيين عما أصاب إفريقية من خراب البلاد الاقتصادي الزراعي على حد قول «بروفنسال».

هذا ولو جاز لنا القول بأنهم هم الذين كانوا وراء ذلك التخريب والدمار، فأين الخلافة الإسلامية من هذه الأعمال التي تتعارض مع أهداف فتوحاتها؟ وهل يعقل أن يرتكب المسلمون مثل هذه الجرائم البشعة وهي تتنافى أصلاً مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية السمحة كما أخبرنا قبل ذلك ؟ ثم كيف يقبل البربر بعد ذلك بالانضمام إلى صفوف المسلمين كمقاتلين وهم يعلمون عنهم ما تقدم ذكره[١٣٠]؟

بقي أن نعرف موقف البربر من هذه السياسة الحمقاء ـ سياسة الأرض المحروقة؟ ما كان للبربر أمام الظروف الحرجة التي مرت بهم إلا هذا الاتجاه (أعني الانضواء تحت لواء الكاهنة) لتنقذهم مما يخشونه من سيطرة المسلمين عليهم وعلى بلادهم وهذا القول يشير إلى أن هناك جموعاً هائلة أخذت تؤمّن على كل ما رسمته الكاهنة ولكن حين وصل الأمر إلى ما وصل إليه من التدمير والتخريب والحرق وتم تنفيذه من قبل أتباع الكاهنة والمقربين إليها ـ عارض معظمهم ذلك التخريب الذريع وأخذوا يطرحون الأسئلة على أنفسهم ثم يجيبون عليها، فقالوا: «لماذا نحن نتصدى للمسلمين ونطردهم من بلادنا؟ فأجابوا: حتى لا يسيطروا على البلاد وخيراتها. ثم قالوا: وإذا كانت خيراتها ذهبت من جراء تلك السياسة الطائشة فهل هناك ما يدعوا إلى الدفاع عنها أصلاً؟ وهل من الضروري الاستمرار في ظل الكاهنة التي أعطتنا العهود والمواثيق على أن تقدم الحماية لنا وتمنع المسلمين من السيطرة على بلادنا وخيراتها؟»[١٣١].

إذاً كان من الآثار السلبية لهذه السياسة ـ الأرض المحروقة ـ ابتعاد البربر عن الكاهنة ثم معارضتها، ولا شك أن إفريقية بعد هذا التخريب ومعارضة البربر القوية

للكاهنة تدهورت من جراء تلك السياسة المعروفة، بل كانت خلال حكمها لهم - والذي امتد خمس سنوات - قد أساءت السيرة وعسفت بأهل البلاد وظلمتهم سواء بربرهم وورومهم أو غيرهم، فكرهوها وتمنوا الخلاص منها، وهذا نجده جلياً في كلام ابن الأثير الذي يقول : «وملكت الكاهنة إفريقية وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم»(١٣٢) .

والظاهر أن إفريقية كلها انتقضت على المسلمين وخرجت من يدهم، فإذا كانت الكاهنة قد سيطرت على الجزء الجنوبي منها، فقد استغل الإمبراطور - ليونتيوس - فرصة غياب حسان عن الناحية الشمالية بعد هزيمته أمام الكاهنة، وبعث بحملة كبيرة يقودها البطريق - يوحنا - سيطرت على قرطاجة بسهولة ويسر، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين حتى أنه كان يقتلهم بيده(١٣٣) .

وكان أمراً متوقعاً أن تسود الفوضى والاضطراب في أهالي إفريقية، لكن أين سيذهب هؤلاء البربر إذا كان قد انقطع رجاؤهم من الروم، والكاهنة على هذه الحالة تنفّذ ما تملي عليها أفكارها المتردية؟

لم يبق أمامهم إلا اللجوء إلى المسلمين، ولكن عليهم أولاً أن يحسنوا الظنّ بهم، ويتفهموا أهداف حملاتهم التي جاءت لتنقذ الناس من ظلم الطغاة إلى عدل السماء، ومن سيطرة الجبابرة إلى عطف الرحماء، ومن عنفوان المعتدين إلى رحمة من هم من ربهم خائفون .

أيقن البربر أن القوة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها والتمسك بها هي قوة المسلمين الذين أصبحوا خلفاء في تلك الأرض الفسيحة . كان تفكير البربر - قبل ذلك - قاصراً على النجاة من أعدائهم على حدّ ظنهم - وهم المسلمون - ولكنهم حين استوعبوا في أنفسهم قيمة الدين الإسلامي الذي يبذل المجاهدون من أجله النفس والنفيس - لانت قلوبهم القاسية واهتدت - بفضل الله تعالى - إلى الطريق القويم، وبدأت تعمل جاهدة في التعويض لما فاتها خاصة حين تبين لهم أن هذا الدين

الإسلامي جاء للناس كافة عربهم وعجمهم وبربرهم الأسود فيهم والأبيض والأحمر، وعليهم ـ هم ـ كذلك أن يشاركوا في تحمل جزء من مشقة الجهاد الذي تحمّله إخوانهم المسلمـون وجعلوا عبئه عليهم، باعتبار أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ظهر فيهم، لذا نجد جماعة كبيرة منهم تتجه إلى حسان الغساني لتستغيث به فيما نزل بهم من الكـاهنـة بعـد سياستهـا الأخيرة(١٣٤) بينما يتجه البعض الآخر منهم إلى أرض الأندلس وسائر الجزر البحرية(١٣٥) كما سنراهم بعد هزيمة الكاهنة يقدّمون لحسان اثني عشر ألفاً من قبائلهم كي يجاهدوا معهم ضدّ من كفر من البربر وعاند منهم(١٣٦)

سياسة حسان في جمع المعلومات عن الكاهنة :

جعل الإسلام للجنود حقوقاً في مقابل الواجبات التي كلفهم بها، وذلك لأن الإسلام لايغمط الناس حقوقهم، فكل واجب يقابله حقّ، وواجبات الجنود في الإسلام كثيرة وعـظيمـة بقدر ما يقومون به من الأعمال العظام، ولعل من أهم هذه الواجبات: الولاء. وهو المحبة.

وإذا كان الإسلام قد حتّم على المسلم ألا يمنح ولاءه إلا لأخيه المسلم جندياً كان أم قائداً، إذ لا يجوز له مطلقاً أن يوالي غير المسلمين مهما كانت صلتهم به، آباءً كانوا أم إخواناً أم أزواجاً أم عشيرة لقول الحق تبارك وتعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ . .﴾ الآية(١٣٧).

وبناءً على هذا نجد الجندي الأسير ـ لدى الكاهنة ـ (وهو خالد بن يزيد) يبقى محافظاً على ولائه الحقيقي لقائده حسان الغساني، علماً بأن المسافة بعيدة بين الاثنين، فنحن نعلم أن الكاهنة عادت أدراجها إلى مكانها الطبعي في الأوراس بعد ما هزمت حسان ـ وطاردته إلى خارج قابس، حيث استقر ببرقة هناك لمدة خمس سنوات، لكن هذا الولاء المذكور سيكون بشكل آخر على اعتبار بُعد الطريق بينهما. فهو ـ أعني الأسـير ـ سيبقى في جوار الكاهنة عيناً لحسان ترقب تحركات تلك المرأة وأتباعها،

فمصلحة المسلمين وقائدهم تقتضي ذلك، فحسان يهمه ـ خاصة بعد هزيمته ـ أن يتابع أخبار الكاهنة أولاً فأولاً، فيعرف أسرارها وما تنوي عمله، ولا شك أنه لن يتأتى ذلك إلّا مع وجود رسول له يعيش قريبا من هذه المرأة، لذا فإن أسر الكاهنة ـ لخالد بن يزيد ـ مع مافيه من خطورة بالغة عليه يعتبر جهداً عظيماً قطف ثمرته بعد ذلك حسان والمسلمون، ومما لاشك فيه أنه لو لم تلجأ هذه الكاهنة إلى سياسة الأسر لهذا الجندي، لاضطرحسان أن يبعث عيوناً ترقب خطواتها وتأتيه بالأخبار الكاملة عنها، وهذا لايخلو من وجود مشقة كبيرة على أولئك المبعوثين، لأنه يتحتّم عليهم كي يحصلوا على هذه الحقائق الثابتة أن يتوغلوا في جبال أوراس ويتقصّوا هذه الأخبار من أعداء الكاهنة وهذا يحتاج مدة زمنية، خاصة إذا علمنا أن الاتصال بسكان تلك الجبال من الصعوبة بمكان لأنهم لايريدون أن تعرف مسالك جبالهم اتقاءً من أعدائهم المسلمين ومن الأمراء المجاورين لهم[١٣٨]، لكن وجود خالد بن يزيد إلى جانب الكاهنة دفع به إلى أن يجمع معظم أسرارها وهذا فيه توفير للوقت، وعليه بعد ذلك (أي رسول حسان) أن يلتقي بالأسير فقط ويستلم الأخبار كاملة في خطاب سرّي لايعلم به أحد.

هذا ومع أن أخبار تلك المراسلات التي تمت بين الجانبين ـ حسان الغساني وخالد بن يزيد يشوبها الطابع القصصي، وخاصة من حيث مقدرة الكاهنة على معرفة ما كان يدور ضدّها من وراء ظهرها، فإنها مهمة بالنسبة لبيان الأساليب التي كانت متبعة قديماً في إخفاء الكتب والرسائل السريّة حتى لا تنكشف[١٣٩].

يذكر صاحب المعالم أن حساناً بعث رسولاً إلى خالد بن يزيد فأتاه فقال: إن حساناً أرسلني إليك وهو يقول لك: ما منعك من الكتابة إلينا بخبر الكاهنة[١٤٠]؟ فكتب له كتاباً وأخفاه في خبزة قد أنضجها ثم دفعها إلى رسول حسان، وليظن من رأى الخبزة أنه زادٌ للرجل، فلم يغب شخص الرسول عنهم حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها[١٤١] وهي تقول: يا معشر بني جراوة ذهب ملككم ودنا هلاككم فيما يأكل الناس، وكررت ذلك ثلاث مرات، ثم افترقوا بعد ذلك يميناً وشمالاً يطلبون الرجل فستره الله حتى وصل حساناً[١٤٢]، فكسر الخبزة ووجد الكتاب الذي فيه «إن البربر

متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطو المراحل وجدّ في السير»[١٤٣] قد أفسدته النار، فقال له حسان ارجع إليه فقال الرجل: إن المرأة كاهنة لا يخفى عليها شيء من هذا[١٤٤]، فكتب له كتاباً وجعله في نقرة نقرت[١٤٥] في قربوس سرجه وغطّاه بالشمع، فمضى الرسول حتى أتى خالداً فدفع إليه الكتاب وعرّفه أن الأول أحرقته النار، فردّ جوابه وأعاده في قربوس سرجه ومضى، فخرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول: ذهب ملككم في نبات الأرض وأراه بين لوحين[١٤٦] فانطلقوا مرة أخرى يبحثون عن الرجل فلم يعثروا عليه، وكان قد انتهى إلى حسان وأعطاه ذلك الكتاب الثاني الذي يحمل نفس المعلومات التي سجلها في الأول. ومن الممكن أن يكون شارك في جمع المعلومات ـ عن الكاهنة ـ بعض البربر الذين دخلوا في الإسلام تلك الفترة.

وما يجب توضيحه في هذا الجانب أن هذه العيون أدّت مهمتها على الوجه الأكمل، وقدّمت تضحيات عظيمة في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود وهو خدمة الإسلام وأهله، والذي يظهر لنا أن هذه العيون حالفها التوفيق والنجاح، فقد قدّمت تقريراً كاملاً عن وضع الكاهنة وجماعتها البربر ـ من خلال الكتاب الذي بعث به خالد بن يزيد ـ مما كان له بالغ الأثر على السياسة التي سار عليها بعد ذلك حسان والمسلمون.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن سياسة إرسال العيون إلى العدو لتحري أخباره وأحواله لم تكن جديدة في تاريخ المسلمين أو بمعنى أصح لم تكن لأول مرة يخوض المسلمون تجربتها، فقد سبقتها تجارب عديدة، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل ـ قبل غزوة بدر ـ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفرٍ من أصحابه لتلمس الأخبار، فقبضوا على غلامين فأتوا بهما وسألوهما عن مكان قريش وعددهم فأجابا. . .[١٤٧].

وهذا قائد المسلمين العلاء بن الحضرمي[١٤٨] في معركة جواثاء[١٤٩] يطلب من أتباعه أن يندس أحدهم بين عسكر المرتدين ليقدم له تقريراً مفصلاً عن حالتهم، فأجابه إلى ذلك عبدالله بن حذف. . وتاريخ المسلمين على مرّ الزمان حافل بمثل هذه التجارب العديدة.

موقف الكاهنة من حركة الفتح الإسلامي (حملة حسان الغساني الثانية):

ترك المسلمون الكاهنة تتحكم في أتباعها خمس سنوات بعد إحرازها النصر عليهم، فما الذي دعاهم إلى التباطؤ عن ضرب حركتها؟ هل كانت هزيمة المرأة لحسان والمسلمين قوية بدرجة جعلتهم يتوجعون من آلامهم طيلة هذه الفترة الزمنية؟ أو أن هناك شيئاً شغلهم عن هذه الحركة؟

إن الأحداث التي جرت في بلاد المشرق بعد هزيمة حسان مباشرة أعطت الكاهنة فرصة لحكم الجهات الجنوبية، في حين بسط الروم سيطرتهم على السواحل والأجزاء الشمالية من إفريقية لهذه المدة المذكورة فالخليفة عبدالملك بن مروان في هذه الفترة كان مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية(١٥٠) والتي منها على سبيل المثال لا الحصر فتنة شبيب ابن يزيد الخارجي الشيباني سنة ٧٦هـ/٦٩٥م(١٥١)، (١٥٢)وفتنة مطرف بن المغيرة بن شعبة الذي خلع عبدالملك بن مروان ولحق بالجبال فقتل هناك(١٥٣)، وفي سنة ٨١هـ/٧٠٠م تمرّد عبدالرحمن بن الأشعث الكندي على الدولة الأموية، وكان هذا التمرّد خطيراً(١٥٤)، حتى كاد أن يعصف بالدولة نفسها، ولم يقض عليه إلا عام ٨٤هـ/٧٠٣م(١٥٥) فضلاً عن الطاعون الذي تعرضت له بلاد الشام عام ٧٩هـ/٦٩٨م(١٥٦) كل ذلك أعطى الكاهنة فرصة ذهبية لبسط نفوذها على شمالي إفريقية وفي نفس الوقت منعت هذه الأوضاع من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها معاً، لكنه استفاد منه في جمع المعلومات ـ من طريق عيونه ـ عن كل تحركات الكاهنة كما وضحنا سلفاً.

اختلفت النصوص في تاريخ عودة حسان إلى إفريقية، إلاّ أنه يبدو أن رواية الرقيق التي ينقلها كل من ابن الأثير وابن عذاري هي أكثر اتزاناً، وهذه الرواية لا تحدّد التاريخ، ولكنها تقول إن حساناً أقام ببرقة خمس سنين(١٥٧)، ولما كانت هزيمته في سنة ٧٤هـ/٦٩٣م تكون عودته إلى المغرب سنة ٧٩هـ/٦٩٨هـ، ورواية الرقيق هي الوحيدة التي تعطينا تفصيلات عن الطريق الذي سلكه حسان من حدود

إفريقية حتى خرجت إليه جماعات من أهلها ومن الروم يستغيثون من الكاهنة[١٥٨]، فكان في ذلك تأييد مادي ومعنوي لحسان الذي سُرَّ بذلك[١٥٩].

وصل حسان إلى قابس[١٦٠] حيث استقبله أهلها استقبال المخلص، فرحّبوا به وقدّموا له الأموال[١٦١]، وهذا دليل على الرغبة الأكيدة من البربر - أهلها - للخضوع والولاء للمسلمين ونفورهم من حكم الكاهنة، ثم اتخذ الطريق الصحراوي القصير عبر بلاد الجريد إلى قفصة[١٦٢] التي أعلنت خضوعها هي الأخرى واتبع حسان ذلك بالاستيلاء على كل من نفزاوة وقسطيلية[١٦٣] [١٦٤]، وبناءً على ذلك أصبح جيش حسان يضم عدداً ضخماً وصل إلى أربعين ألفاً ولا شك أن ضخامة هذا الجيش كانت نتيجة انضمام البربر إلى المسلمين، في محاربة الكاهنة إذ أن ابن عذاري يقول: «إنه كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلاّ أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع المسلمين، فأجابوه وأسلموا على يديه[١٦٥] «كما أن المالكي ذكر» بأنه كان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر»[١٦٦].

بات من المسلم به أن البربر ملّوا حكم المرأة المشعوذة، الذي جرّ لهم الويلات والحسرات، ورغبوا في طلب الأمان من المسلمين وقائدهم لمعرفتهم الأكيدة أنهم هم الذين سينقذونهم من المآسي والأحزان والقلق النفسي الذي يلاحقهم بانضوائهم تحت لواء الكاهنة، واعتقد أن إسلام هذا الكمّ الكبير لم يأت من فراغ، ففضلاً عن الأسباب المذكورة كانوا - أعني البربر - قد تفهّموا أهداف الفتوحات الإسلامية بعد ما خاضوا غمار حروب ضدهم (أي المسلمين) فمنحهم الله الاطمئنان النفسي مما كان له أعظم الأثر في هداية الله لهم، يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١٦٧].

علمت الكاهنة بأخبار توجه حسان إليها في حملة ثانية، كما أحسّت أن القوة الفعالة التي كانت تقف معها قلباً وقالباً أصبحت ناقمة عليها، لذلك نراها تنبأت بمصيرها وتقول: «إنها تنظر إلى رأسها يُركض به إلى ناحية المشرق»[١٦٨] وفي هذا تصوير دقيق عما سيحدث لها بعد فترة وجيزة من خروج حسان وأتباعه، وهذا فيما يظهر لي لا يحتاج إلى حدس[١٦٩] فأي شخص سواءً الكاهنة أو غيرها سيوجد أمامه مثل هذه الجحافل

سيتوقع أن مصيره المحتوم هو الهلاك ومما يبرهن على شدة ضعفها وأنها أكّدت سير المسلمين إليها وقضاءهم عليها بين الحين والحين قول ابن عبدالحكم إن حساناً لما توجه إليها «خرجت ناشرة شعرها وقالت: يا بنيّ انظروا ماذا ترون في السماء؟ قالوا نرى شيئاً من سحاب أحمر. قالت لا وإلهي ولكنها رهج خيل المسلمين»[١٧٠].

ثم لم يقتصر أمر هذه الكاهنة على الخوف والتخمين بل رغبت بعد ذلك في الاستئمان لنفسها ولولديها من حسان والمسلمين، ولكنها فكّرت في الأمر جيداً فاعتبرت تسليم نفسها عاراً «ما بعده عار، أو أنها ربّما خشيت أن يأسرها المسلمون ويحملوها سبية إلى دمشق أو اعتقدت أنها إن أقدمت على ذلك ـ أعني التسليم ـ أن ينقض عليها من بقي على الولاء لها فتذهب هي وأبناؤها ضحية ذلك التصرف، لذا فضلت أن تستأمن لولديها فقط عند حسان، وتظلّ هي ومن بقي على الولاء لها على حرب المسلمين.»

في هذا الوقت الحرج جداً تجني ـ الكاهنة ـ ثمرة واحدة من سياسة المؤاخاة التي أقدمت عليها، التي ظلّت مرتبطة بها خمس سنوات، فتتجه ـ المرأة ـ إلى خالد بن يزيد (الابن العربي المسترضع) وكلها يقين بأنه سينفّذ أوامرها فتقول له وبصراحة: «إنما كنت تبنّيتك لمثل هذا اليوم، فأوصيك بأخويك هذين خيراً فقال خالد: إني أخاف إن كان ما تقولين حقاً ألاّ يستبقيا؟ قالت: بلى ويكون أحدهما عند المسلمين أعظم شأناً من اليوم، فانطلق فخُذْ لهما أماناً»[١٧١] تقول ذلك له حينما أوشكت جيوش حسان في الوصول إليها.

أضحى من الواجب عليه ـ خالد القيسي ـ أن يكون ذلك الحين أكثر حنكة وسياسة، فيكمل مشواره الذي بدأه مع الكاهنة، فلا يظهر التضجّر منها ـ بعد قدوم حسان ـ بل يطمئنها أنه لا زال على ولائه لها، وأنه حسبها كانت تتأمله فيه كابن مسترضع، وهذا ما نفّذه فعلاً فأظهر خوفه على تلك الأم المؤقتة وقال لها: «لماذا لا ترحلي بنا وتخلّي له عن البلاد فرفضت ذلك ورأته عاراً كبيراً»[١٧٢] بعد ذلك بين لها أنه منزعج من هذا التطور الأخير وقال لها: فما نحن صانعون بعدك؟ قالت: أما أنت يا خالد فتدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم، وأما أولادي فيدركون سلطاناً مع هذا

الرجل الذي يقتلني، ويعقدون للبربر عزاً، ثم قالت اركبوا إليه واستأمنوا»(١٧٣).

ما من شك في أن رواية الحوادث على هذا النسق داخل في باب القصص أكثر منها في التاريخ ولكن جوتيه يخالفنا في ذلك («ويؤكد أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الواقع بعينه ويدعم كلامه بمثل حي على ذلك، حدث أثناء حرب الفرنسيين مع البربر شديد الشبه بقصة الكاهنة، إذ استأمن زعيم بربري لأولاده عند القائد الفرنسي، وأقام هو على الحرب فكان أولاده يقاتلونه في الميدان نفسه»)(١٧٤). لكن الفرق الملاحظ بين الاثنين: «الزعيم البربري والكاهنة» أن الأخيرة تنبأت بمصير أبنائها قبل أن يقدم حسان عليها.

اختلفت المصادر في الحربِ التي دارت بين الطرفين، هل هي معركة واحدة أو أنها أكثر؟ الظاهر أن الحقيقة تتفق مع ما يذكره المالكي أنه حدثت معركتان كبيرتان بين حسان والكاهنة» **الأولى**: منهما عند قابس»(١٧٥) ونظن أنها المعركة التي يقال: إنها وقعت قرب حصن الجَم(١٧٦)، الذي اعتصمت به وحفرت منه سرباً في الحجر الصّلد، نفذت به إلى أصل مدينة سلقطه(١٧٦)، وكانت أختها هناك، فكان الطعام يجاء به إليها في ذلك السرب على ظهور الدواب(١٧٧).

الثانية: وهي الفاصلة. وقعت في جبل أوراس، وهذا ما تؤيده بوضوح تامّ رواية الدباغ(١٧٨) وأن طلب أبناء الكاهنة الأمان وقع بين المعركتين(١٧٩).

ينفرد الدباغ بإيراد بعض التفاصيل التي تتصل بالصراع الأخير بين المسلمين والكاهنة فيذكر أن حساناً لم يكد يعبر قابس حتى لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة فقاتلهم حسان وهزمهم الله، وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر تتحصّن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض، فمضت تريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده فتبعها حسان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة(١٨٠).

أما عن تاريخ مقتل الكاهنة، فلم ينضبط بتاريخ محقق(١٨١)، وإن كانت هناك رواية قد حددت فترة عودة حسان إلى القيروان بسنة ٨٢هـ/٧٠١م إلّا أنه ليس من الضروري أن تكون الكاهنة قد قتلت في هذا التاريخ المذكور لأنه جرت فيما بين مقتل

الكاهنة وعودة حسان إلى القيروان أحداث هامة هي التي انبنى عليها استقرار العرب بصفة نهائية في المغرب، ولكن إذا تأكّد لنا عودة حسان إلى إفريقية في حملته الثانية على الكاهنة - بسنة ٧٩هـ/٦٩٨م أو ٨٠هـ/٦٩٩م فهذا يعني أن مقتلها كان - على وجه التقريب - في سنة ٨١هـ/٧٠٠م أو ٨٢هـ/٧٠١م على أكثر تقدير والله أعلم.

قال غروت («بعد أن آيست الكاهنة من النصر ورأت خذلان البربر والروم لها أرادت الانتقام منهم فأرسلت إلى حسان تعرض عليه إسلامها وإسلام من بقي تحت أمرها والوقوف في صفه، ووجّهت ذلك مع ولديها، فلم يقبل حسان وأسر الولدين، عندها تأخرت إلى جبل أوراس، وكانت لها بنت تدعى «مشوشة» قد أعدّت لها ملجأ لكن المسلمين دخلوا ملجأها، ففرّت وقتلت في طريق فرارها عند بئر يدعى بئر العطر، ثم اطلق عليه بئر الكاهنة»)[١٨٢].

وللرد على ذلك نقول: أولاً: إن المصادر لم تتطرق لأسر حسان للولدين بل قالت: إنه عقد لهما لكل واحد على ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع المسلمين يجوبون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر - من البربر[١٨٣]، وهذا هو الوضع الصحيح الذي عرف عند المسلمون من عدم الإساءة إلى الرسول.

ثانياً: كيف يرفض حسان إسلام الكاهنة وهو - إنما - يحارب لتلك الغاية ومن أجلها خرج والحقيقة أن كل من له إلمام ضعيف بتاريخ الإسلام يعلم أن المسلمين لا يقاتلون إلاّ بعد أن يعرضوا على محاربيهم الإسلام ثم الجزية، فها هو سلمان الفارسي[١٨٤] المبعوث من قبل القائد سعد بن أبي وقاص[١٨٥] يدعو أهل نهر شير[١٨٦] - بعد أن امتنعت من الفتح - إلى الدخول في الإسلام أو الجزية أو المقاتلة، فأبوا إلا المقاتلة والعصيان ونصبوا المناجيق والدبابات فقاتهلم المسلمون وهزموهم[١٨٧].

وهاهو عبدالله بن سعد بن أبي السرح حين يصل إلى إفريقية يقابل ملكها جرجير ويعرض الإسلام عليه فيرفضه بشدة قاطعة ويضع أمامه الخيار الآخر - الجزية كل عام - فيأبى دفع أي درهم لهم، عندها لم يبق للمسلمين إلاّ أن يتهيّؤوا لقتاله[١٨٨]، إذاً قتال حسان للكاهنة يؤكد عدم طلبها للإسلام.

ثالثاً : تقول الرواية إنها طلبت الإسلام طمعاً في النجاة ـ لا عن إيمان ـ وهذا في حدّ ذاته نوع من الفرار، وهو يخالف ما ذكرته المصادر التاريخية التي تقول: إنها امتنعت من الفرار ـ حين عرضه قومها عليها ـ واعتبرته عاراً سيلصق بها إلى آخر الدهر(١٨٩).

رابعاً : إذا كنا نؤمن بوجود بنت للكاهنة اسمها مشوشة فهي إما أن تكون قد انضمت إلى المسلمين مع أخويها، أو أنها ظلت تدافع عن أمها حيث قتلت معها وهذا ما لم نجد في أي رواية من المصادر التي بين أيدينا.

بذلك تبطل رواية غروت ويتبين لنا مدى حقد هذا الرجل وأمثاله على هؤلاء ـ القادة الأفذاذ الذين كافحوا وناضلوا من أجل دفع عجلة الإسلام إلى الأمام والسير بها مسافات بعيدة لتعم جميع أصقاع المعمورة.

وما يجب أن ننوه به أن الكاهنة ـ بمقتلها ـ تركت أثراً عميقاً في نفوس الأهلين من البربر والروم الذين وقفوا إلى جانبها صامدين حتى اللحظات الأخيرة، وتحولت بمرور الزمن إلى شخصية أسطورية يتداول أهل البلد قصصها وأخبارها، أما عن رفض قصة الكاهنة وحركتها والشك في أمرها لمجرد أنها امرأة فقط، فحجة ضعيفة يؤكد بطلانها حيث إن المرأة لا تكاد تقل مقاماً واحتراماً عن الرجل عند كثير من قبائل البربر ويكفينا دليلاً على ذلك تنصيبها رئيسة عليهم مع وجود من هو أقدر منها وأكفأ ـ في البربر ـ من الرجال، لكن مهما يكن الأمر فقد بالغ المؤرخون في وصف الكاهنة وسلطانها مبالغة غير محمودة.

خاتمـة :

الحمد لله مُتمّ النعم، والشكر له على ما تفضّل به وأتم، وبعد: فمن أهم النتائج التي توصل البحث إليها:

- سماحة الإسلام وسهولة تعامله مع من رفع راية العصيان في وجهه حيث أعطى الأمان لأبناء الكاهنة الذين شاركوا أمهم في إعلان ذلك العداء ضد المسلمين، ولعل ذلك أعطى نتائج طيبة، إذ إن هذه المعاملة كانت عاملاً دفع البربر إلى الانسياق في صفوف المسلمين فنجدهم بعد ذلك شكّلوا صفوفاً في ميدان الجهاد وكانت لهم صولات وجولات محتسبين كل ذلك عند الله عز وجل.
- الصبر دائماً تكون نتائجه حميدة، فبقاء خالد بن يزيد عند الكاهنة مدة تزيد على خمس سنوات ليس بالأمر اليسير، حتى وإن كان الرجل معززاً، فهو يكفي أنه كان في حكم الأسير، حتى جاء الفرج - بعد الصبر - بحملة حسان الثانية، فكان بذلك الصبر سبباً مباشراً من أسباب الفتح العظيم لإفريقية، فجهوده سطّرها له التاريخ بأحرف من ذهب.
- المبـالغة الشديدة في الطاعة - من أغلبية البربر - للكاهنة، ولعلهم طبقوا بهذا سياسة الطاعة العمياء، التي أدت نتائجها بعد ذلك إلى نفور البقية الباقية منهم - أي البربر - واستنجادهم بالمسلمين، فهم بذلك رسموا خطة لسيطرة خصمهم عليهم.
- عودة إفـريقية - الجزء الجنوبي منها - بسبب سياسة الأرض المحروقة إلى الوراء فترات زمنية طويلة، فتدهورت الحالة الاقتصادية والحضارية. . .

ولعل من أهم الآثار المترتبة على فشل حركة الكاهنة وقتلها:

- عدم رفع لواء العصيان من قبل البربر في شكل حركة فعلية ضدّ المسلمين، وهذا يعني أنه أسدل الستار على حركات الانتقاض والفتن والخلافات في تلك الجهات الإفـريقية[١٩٠]، فلن يكـون كسيلة آخـر أو كاهنة أخرى، بل شهـد تاريخ المسلمين أول فترات الاستقرار في هذه البلاد، فهم لم يغادروا هذه الأرض بعد

ذلك اليـوم لكنهم انطلقـوا منهـا لإخضـاع مـا تبقى من بـلاد المغـرب الأوسط والأقصى ثم عبروا البحر إلى أرض الأندلس.

- انفتاح الطريق للمسلمين الذين طالما تاقت نفوسهم للوصول إلى ما وراء جبال أوراس وما جاورها.
- انتهاء الحكم البيزنطي في إفريقية - بعد استرداد حسان لقرطاجنة - وتهيئته الجو لإقـامة دولة إفريقية إسلامية تعرف شرع الله وتقيم تعاليمه، وتنفّذ ما جاء في السنة النبوية من أوامر وتبتعد عما ورد فيها من نواهي.
- القضاء على تلك الحركة هيأ لحسان أن يتّجه إلى الاهتمام بالناحية العمرانية حيث بنى مدينة تونس إلى جنوب قرطاجنة القديمة، وأراد أن تقوم للمسلمين مقام قرطاجنة للروم عيناً تحرس الشواطىء، وداراً للصناعة تبنى فيها السفن، وميناءً تجارياً يصل بين الساحل والداخل.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في توضيح تلك الحركة بصورتها الجليّة، كما أسأل الله العلي القدير أن يكون خير هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء، وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ١٠٣/٦ .

(٢) اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الأسكندرية وإفريقية واسم مدينتها انطابلس. . . انظر (ياقوت : معجم البلدان : ٣٨٨/١).

(٣) هي من أكبر بطون البربر البتر ينسبون إلى لو الأصغر ابن لو الأكبر، ولو الأصغر هو نفزاوة (ابن خلدون : العبر ٩١/٦).

(٤) هم من الأصل الجرماني زحفوا في القرن الرابع الميلادي على أسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة، وكانوا يسكنون فيها وراء جبل طارق. (الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٣٤).

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ٨/١ .

(٦) مدينة عتيقة في آخر أرض برقة وأول أرض إفريقية، ، بناها الرومان ثم حكمها الوندال ثم المسلمون بعد أن حاصروا الدوق الوندالي بها مدة ستة أشهر. . . انظر التفاصيل في : (ياقوت : معجم البلدان ٢١٧/١ ؛ الفاسي : وصف إفريقية ٩٧/٢).

(٧) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٨) مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كيلو على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أنشأها الفينقيون حوالي سنة ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق.م وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الأفريقي، وكانت أكبر من طرابلس وأعظم منها عمراناً ومدنية (الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٦٦).

(٩) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس . ص ٣٢ .

(١٠) ابن عبدالحكم : المصدر نفسه ص ٣٣ .

(١١) مدينة من مدن إفريقية، بينها وبين القيروان سبعون ميلاً حيث توجد إلى الجنوب الغربي منها، كانت عاصمة إفريقية قديماً، وكانت في ذلك الوقت دار الملك. . . (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٨٣/٢ ؛ ياقوت : معجم البلدان ١٨٧/٣).

(١٢) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ص ١٥٩؛ المالكي : رياض النفوس ١٠/١ ؛ النويري مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٦٢ .

(١٣) نسبة إلى من شارك فيها وهم : عبدالله بن الزبير، عبدالله بن عباس، عبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، عبدالرحمن بن صبيحة، عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأخواه عبيدالله وعاصم، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبدالله بن عمرو بن العاص (المالكي : رياض النفوس ٩/١ ـ ١٠).

(١٤) هو أبو يحيى عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري، فارس بني عمرو بن لؤي، كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ثم ارتد عن الإسلام وأمنه عثمان يوم الفتح، وكان أخوه من الرضاعة بعد أن أهدر دمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أسلم وحسن إسلامه، شهد فتح مصر وولاه عثمان ولايتها، ثم غزا إفريقية وأسس مسجداً بالقيروان. . . (المالكي : رياض النفوس ١/٤٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٩؛ ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٢٦ ـ ٢٧).

(١٥) هكذا يسميه العرب، بينما إسمه «جريجوريوس بن نيقتاس بن جريجوريوس» انظر: (سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال ١/١٢٥).

(١٦) كان عدد المسلمين عشرين ألفاً وعدد الروم مائة وعشرين ألفاً (المالكي : رياض النفوس ١/١٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢/٤٨٣ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/١٠ ؛ ابن خلدون : العبر ٦/١٠٧ ، ١٠٨).

(١٧) اتفقوا فيه على «أن يدفعوا للمسلمين جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة قنطار ذهب». ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه، ولكن يستنتج منه كثرة مادفع للمسلمين من الذهب (البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٨، ابن عذاري : البيان المغرب ١/١٢).

(١٨) يسميه ابن عذاري في : البيان المغرب ١/١٦ «حباحبة».

(١٩) هو أبو نعيم معاوية بن حديج الخولاني، ولي الأمارة لمعاوية على مصر وليزيد من بعده شهد فتحها، ثم بعث لفتح إفريقية، وحاصر جلولاء حيث فتحت عنوة، ذهبت عينه، يوم «دمقله» من بلد النوبة سنة إحدى وثمانين . . . (المالكي : رياض النفوس ٥٩ ـ ٦٠، ابن عذاري البيان المغرب ١/١٧ ـ ١٨، ابن أبي دينار : المؤنس : ص ٢٧ ـ ٢٨).

(٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢/٤٨٥.

(٢١) توجد على مسيرة أربعة وعشرين ميلاً من القيروان (سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ١٧٢).

(٢٢) كانت ولايته الأولى من سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠م) حتى (٥٥هـ ـ ٦٧٤م) أما الثانية فمن سنة (٦٢هـ ـ ٦٨١م) حتى (٦٤هـ ـ ٦٨٣م).

(٢٣) مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة، عليها سور أزلي من حجارة ولها ربض عليه سور والأسواق فيه . . (ابن حوقل: صورة الأرض ص ٨٤ وما بعدها، ياقوت: معجم البلدان : ١/٣٢٥).

(٢٤) ابن الأثير : الكامل ٣/٤٥١ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٢٤.

(٢٥) يقع هذا الأقليم في وسط مفازات نوميديا ، ويبتدىء غرباً من تخوم مسيلة، ويحده شمالاً جبال مملكة بجاية ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوباً إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركله، يشتمل الاقليم على خمس مدن، بسكرة، البرج، نفطه، طولقة، دوش، . . . (الفاسي : وصف إفريقية ٢/١٣٨ ـ ١٤٠).

(٢٦) ابن الأثير : الكامل ٣/٤٥١ .

(٢٧) تدعى عند البرتغاليين طنجيرة وهي مدينة عظيمة قديمة، يقول الثقات من المؤرخين أن الرومان هم الذين أسسوا طنجة على شاطىء المحيط في الوقت الذي كانوا يحكمون فيه أسبانيا، وتوجد على بعد ثلاثين ميلاً من سبتة ومائة وخمسين ميلاً من فاس. . . (الفاسي : وصف إفريقية ١/٣١٣ ـ ٣١٤).

(٢٨) تهوذه، وقيل (تهوده) (ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ١/٢٨٣) وقيل (تهوذا) و (تهودا) (ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٧؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٠) وهي مدينة قديمة توجد إلى الجهة الجنوبية من الأوراس، بينها وبين البسكرة مرحلة فقط، ومكانها الآن (سيدي عقبة) (سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٢٠٤ ، ٢٠٥).

(٢٩) عن قتل هذا القائد انظر : ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٥٩ ، ابن الأثير : الكامل ٣/٤٥٢؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٢٨ .

(٣٠) أمير من القادة الشجعان الفاتحين، شهد فتح مصر، وولاه أميرها عبدالعزيز بن مروان على برقة سنة ٦٩هـ/٦٨٨م . فكانت له مع البربر والروم وقائع، كان مقتله سنة ٧٦هـ/٦٩٥م (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١/٢٥٢؛ الزركلي : الاعلام ٣/٥٢).

(٣١) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٣٢) المالكي : رياض النفوس ١/٣١ ؛ الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ١/٦٠ .

(٣٣) اختلفت الروايات في تحديد السنة التي بعث فيها هذا القائد، فالمالكي يقول أنه بعث سنة ٦٩هـ/٦٨٨م . والكندي وابن عذاري يقولان : تم ذلك سنة ٧٨هـ/٦٩٧م . بينما تردد ابن أبي دينار في اتخاذ قرار أكيد حيال ذلك فذكر ثلاث فترات زمنية ٧٦هـ/٦٩٥م، ٧٧هـ/٦٩٦م، ٩٩هـ/٧١٧م، وعند التحقيق استبعدنا سنة ٩٩هـ لأن حساناً توفي قبل هذه الفترة كما هو معروف (أي سنة ٨٦هـ) . وربما كانت السنة التي بعث فيها حسان مخالفة أيضاً لتلك السنوات المذكورة سلفاً لأننا نجد تحديد ابن الحكم لها - حيث حددها بسنة ٧٣هـ - ٦٩٢م - أقرب إلى الصحة والواقع، فالخليفة عبدالملك انتهى من قوة ابن الزبير حينذاك وهي المشكلة التي كادت تطيح بالدولة الأموية، وهذا الرأي لا يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير (سنة ٧٤هـ/٦٩٣م) فالأوامر صدرت لحسان بالتحرك سنة ٧٣هـ/٦٩٢م ليقيم في مصر حتى يجتمع لديه الجيش والسلاح ثم انطلق من مصر سنة ٧٤هـ/٦٩٣م. والله أعلم. انظر: (الكندي: الولاة وكتاب القضاة ص ٥٢؛ المالكي: رياض النفوس ١/٣١؛ ابن عبدالحكم : فتوح أفريقية والأندلس ص ٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٧٩؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٠؛ الناصر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/٩٢).

(٣٤) القضاعي : الحلة السيراء ص ٤٦٦، ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٤، الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/٩٢، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية ص ٣٤، الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٠ ، ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ص ٨٢ ، بينما انفرد المالكي في رياض النفوس بذكر عدد ستة آلاف فقط ١/٣١.

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ٤/١٣٥ ، الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٠، ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية ص ٣٣.

(٣٦) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٤ .

(٣٧) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٢.

(٣٨) تسمى قرطاج وهذا هو المشهور، وقرطا . ثم أضيفت إليها جنة لما اشتهرت به من الطيب وكثرة الفواكه، وهي على ساحل البحر بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً التفاصيل في: (ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٥، ياقوت:

معجم البلدان ٤/٣٢٣، الفاسي : وصف إفريقية ٢/٦٨ - ٦٩).

(٣٩) من جزر البحر الأبيض المتوسط وتقع في وسطه، وبينها - الجزيرة - وبين بَر إفريقية مائة وأربعون ميلاً (ياقوت : معجم البلدان ٣/٤١٦، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢٥٧ . (مادة صقلية).

(٤٠) المالكي : رياض النفوس ١/٣١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/١٣٥؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/١١٣؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٤؛ الدباغ : معالم الإيمان : ١/٦٠.

(٤١) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٦٠ بتصرف .

(٤٢) فيقول «فخربوها حتى صارت كأمس الغابر» (ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٥؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول. . . ١/٩٢).

(٤٣) النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٧٤ ب .

(٤٤) وتسمى سطفورة وهو: اقليم بحري فسيح يضم ثلاث مدن قريبة جداً من تونس وهي : انبلونه، باجة، بنزرت (ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٥).

(٤٥) أو بنسرت : وهي مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً من تونس. . . انظر التفاصيل في : (الفاسي : وصف إفريقية ٢/٦٨).

(٤٦) مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من البحر المتوسط وثمانين ميلاً أو أكثر بقليل من تونس، وبما أنها شيدت في موقع مدينة أخرى أطلقوا عليها إسم فكشيا تم تحولت الفاء باء والكاف جيماً، فأصبح الاسم باجا، وهذا اللفظ ليس عربياً، واحتفظت باجة بأسوارها العتيقة الأولية مدة من الزمن . . . التفاصيل في (الفاسي : وصف إفريقية ٢/٦٦).

(٤٧) مدينة إفريقية بين مرسى الخرز وجزيرة بني مرغناي، وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القرينة، ولها أسواق وتجارة مقصودة. (ياقوت: معجم البلدان ١/٥١٢؛ ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٧).

(٤٨) المالكي : رياض النفوس : ١/٣٢؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٥؛ أسد الغابة ٤/١١٣؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٥؛ النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٧٤ ب؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/١٨٧؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٠ - ٦١؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب . . ١/٩٢ ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ص ٨٢ .

(٤٩) تعني لفظة الكاهنة أو الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار وولدت هذه الحرفة - حرفة الكهانة - قبل ولادة الإسلام، فلقد كانت فاشية في الجاهلية وخاصة عند العرب

(٥٠) أورد هذا : حسين مؤنس في كتابه : فتح العرب للمغرب ص ٢٤٢، وحاشية (٢) من الصفحة نفسها، وكذلك في ص ٢٥٤.

(٥١) (٥٢) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٢١٧ ولقد علل ابن الأثير سبب إطلاقه عليها بقوله «وكانت تخبرهم بشيء من الغيب فسميت الكاهنة» (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٥؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤/١٤٣).

(٥٣) يعتقد البعض على رأي ضعيف أن هذا الاسم كذلك يعتبر صفة أو لقب أطلق عليها لإتصافها بالدهاء، وهو الصفة الأساسية عند السحرة والمشعوذين. (سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ١/٢١٧).

(٥٤) الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ص ٤١ .

(٥٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ . . ٦/١٠٩ ، ٧/١٠٩، ٧/ص ٩؛ الطرابلسي المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ٣٨.

(٥٦) المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص ٣٤ .

(٥٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٥.

(٥٨) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٤٥ .

(٥٩) فقالوا إنها أصبحت ملكة للبربر (ابن عبدالحكم: فتوح إفريقية والأندلس : ص ٦٣ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣١).

(٦٠) ابن عذاري: البيان المغرب ١/٣٥، وفي رواية «إن قتلت ييأس الروم والبربر أن يكون لهم ملجأ» (المالكي: رياض النفوس ١/٣٢).

(٦١) اللميلم : حسان بن النعمان الغساني ص ١١١ .

(٦٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٦/١٠٩، وهذا هو التصوير الصحيح الذي يجعل الأمور في نصابها ويجعل الكاهنة زعيمة على جراوة فقط دون غيرها. (حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ص ٢٤٥).

(٦٣) من المعروف أن البربر البرانس كانوا ضد الكاهنة خاصة بعد عمليات التخريب وهذا ما سنبينه لاحقاً.

(٦٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/٩٣ .

(٦٥) البيان المغرب ١/٣٧ .

(٦٦) تقع الأوراس على بعد نحو ثمانين ميلاً من بجاية وستين ميلاً من قسنطينة، وهي مفصولة عن الجبال الأخرى، وممتدة على طول نحو ستين ميلاً، تتاخم الأوراس جنوباً صحراء نوميديا، وشمالاً بلاد مسيلة وسطيف ونكاوس وقسنطينة (الفاسي : وصف إفريقية ٢/١٠٢ - ١٠٣).

(٦٧) الفاسي : وصف إفريقية ٢/١٠٣ .

(٦٨) المالكي : رياض النفوس ١/٣٥ .

(٦٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٦/١٠٧.

(٧٠) علق على هذا الموضوع الفاسي في كتابه وصف إفريقية ١/٦٧ حيث يقول «كان الأفارقة في الزمن القديم وثنيين على غرار الفرس الذين يعبدون الشمس والنار . . . وبعد ذلك اعتنقوا الديانة اليهودية طوال سنين عدة . . .».

(٧١) هو عبدالله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة، أمير البحر في صدر الإسلام كان مقيماً في الشام، وأراد معاوية غزو قبرص فولاه قيادة الغزاة (٢٧هـ/٦٤٧م). ثم غزا خمسين غزوة صيفاً وشتاءً في البحر لم يغرق من جيشه أحد، قتله الروم وهو يطوف في أحد المرافىء متخفياً سنة ٥٣هـ/٦٧٢م. . (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٤/٢٦٠ - ٢٦١؛ الزركلي : الأعلام ٤/١١٤ - ١١٥).

(٧٢) ابن عذاري : البيان المغرب ١/١٨.

(٧٣) مدينة في جنوبي إفريقية ، بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية. (ياقوت : معجم البلدان ٥/٣٦٦).

(٧٤) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٢ .

(٧٥) الفاسي : وصف إفريقية ١/٣٦٤ .

(٧٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧/٩؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/٩٣.

(٧٧) المالكي : رياض النفوس ١/٣٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٣ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية : ص ١٠٢.

(٧٨) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧ .

(٧٩) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٥٩ .

(٨٠) أورد هذا الرأي حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ١٨٦ .

(٨١) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧ .

(٨٢) النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٧٥أ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/١٨٧؛ الطرابلسي : المنهل العذب ص ٣٩؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/٩٣، وقيل «العبسي» الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠١ .

(٨٣) تاريخ إفريقية والمغرب ص ٥٨ .

(٨٤) وقيل - إن اسميها «يفرن، يزديان» (سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ١/٢٣١).

(٨٥) قال به كثير من المؤرخين في مقدمتهم (ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧/٩؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/٩٣).

(٨٦) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٨ .

(٨٧) الكامل في التاريخ : ٤/١٣٧.

(٨٨) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٤٤ ، اللميلم : حسان الغساني ص ١١٣ .

(٨٩) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٥ .

(٩٠) ابن عذاري : المصدر نفسه ١/٣٥ .

(٩١) المالكي : رياض النفوس ١/٣٦ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٦.

(٩٢) هذا الحديث المذكور يرويه «عبدالله بن محمد ويقول: حدثنا أبو روح الحرمي ابن عمارة، حدثنا شعبة عن واقد بن محمد، قال سمعت أبي يحدث عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت أن أقاتل . . . (البخاري : صحيح البخاري - الجزء الأول - ص ١١ - ١٢).

(٩٣) هي موضوعة على الرؤوس ، واسمها مشتق من الجزاء إما جزاءً على كفرهم! لأخذها منهم صغاراً، وإما جزاءً على أمانها لهم لأخذها منهم رفقاً، وهي تؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء فقط، واختلف الفقهاء في قدرها، فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم إلى ثلاثة أصناف : أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً وأوساط يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً، وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهماً. . انظر بقية التفاصيل في : (الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٢ وما بعدها).

(٩٤) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٥ .

(٩٥) المصدر نفسه .

(٩٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٦/١٠٩ ؛ الطرابلسي : المنهل العذب ص ٣٨ ، ٣٩ ، وقد انضم إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناته وسائر البتر؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/٩٣ .

(٩٧) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٤٥ .

(٩٨) المالكي : رياض النفوس ١/٣٢-٣٣؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٥؛ الدباغ : معالم الايمان ١/٦٢.

(٩٩) قال عنه ياقوت : معجم البلدان ٥/٣٣٩ «أنه نهر مشهور بأفريقية في أقصاها».

(١٠٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٦؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٢.

(١٠١) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦ .

(١٠٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣١ ؛ المالكي : رياض النفوس ١/٣٣.

(١٠٣) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٣؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٢.

(١٠٤) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦؛ سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٥) الكامل في التاريخ : ٤/١٣٦ ؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٧٥ أ.

(١٠٦) البيان المغرب : ١/٣٦ .

(١٠٧) الحلة السيراء ص ٤٦٦ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٤ .

(١٠٨) عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ١٦١ .

(١٠٩) اللميلم : حسان الغساني ص ١٢٠ .

(١١٠) قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ سورة التوبة آية ٢٥ .

(١١١) ابن عذاري : البيان ١/٣٦ .

(١١٢) وكان نص جواب الخليفة «قد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابي هذا فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري (المالكي : رياض النفوس ١/٣٣؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٢).

(١١٣) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٣ .

(١١٤) حيث أطلق عليها قصور حسان ، وهما قصران بناهما القائد حسان على ساحل البحر بعيدة عن طرابلس بنحو أربعمائة كلم في المكان المسمى بقصور حسان «وثماد حسان» أي المستنقع الصغير . انظر التفاصيل في (ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٣ ، المالكي : رياض النفوس ١/٣٣؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/٩٣؛ الفاسي : وصف إفريقية ٢/١٠٧ هامش رقم ١٠٠ ، الطرابلسي : المنهل العذب ص ٣٩.

(١١٥) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٣، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية ص ٣٤؛ الناصري: الاستقصا لأخبار. . . ١/٩٣؛ المالكي : رياض النفوس ١/٣٣، وللمالكي رواية أخرى «أنه أسر ثمانية رجال» أما رواية الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠١ «فهي أنها أسرت ثلاثين رجلاً».

(١١٦) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٤٩ .

(١١٧) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦ .

(١١٨) المالكي : رياض النفوس ١/٣٣ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٢.

(١١٩) المالكي : رياض النفوس ١/٣٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٣؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٢ - بتصرف.

(١٢٠) المالكي : رياض النفوس ١/٣٣ .

(١٢١) الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٣ .

(١٢٢) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٣ ، ٦٤ ؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة رقم ٧٥أ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/١٨٧ .

(١٢٣) لا خلاف في أن الشريعة الإسلامية رسمت لنا خطاً واضحاً في هذا الجانب من الرضاع، وهو ينافي جملة وتفصيلاً ما جاء في سياسة الرضاع التي جاء بها البربر فقد ذكرت لنا أن الرضاع الذي يحرم معه كثير من الأمور له شروط : أهمها : أن يكون في الحولين، وهذا قول أكثر أهل العلم لقوله تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ . . . ﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٣). هذا ولو ارتضع بعد الفطام في الحولين لم تحرم عليه لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتّق الأمعاء وكان قبل الطعام». ثانياً : أن يكون خمس رضعات متفرقات فصاعداً، وزعم الليث أن المسلمين أجمعوا على أن قليل الرضاع وكثيره يحرم في المهد ما يفطر به الصائم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (سورة النساء آية ٢٣). وقوله عليه الصلاة والسلام «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». . . انظر بقية التفاصيل في (ابن قدامة : المغني ٧/٥٣٥ ـ ٥٣٦ ـ ٥٦٢ ـ ٥٦٣).

(١٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٦ ؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٧٥ ب؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/٩٣؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦ ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ص ١٨٣ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٤.

(١٢٥) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب ج٢٢ ورقة رقم ٧٥ ب.

(١٢٦) وهذا يعتبر الخراب الأول لإفريقية (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٦ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٤).

(١٢٧) وقال كذلك وهو (الشيخ محمد بن علي شارح الشفراطسية) ومن تأمل أثر المدن والقصور الخربة بإفريقية وتداني بعضها من بعض، رأى من ذلك ما يفضي منه العجب، ويستدل على كثرة عمرانها في السالف، وكذلك الشعاري التي بها إذا تأمل أشجارها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبىء أنها مغروسة لا نبات. (الورثيلانية ص ١٠٣).

(١٢٨) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي منذ الفتح إلى بداية عصور الاستقلال ١/٢٢١.

(١٢٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٣/٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(١٣٠) أبو بكر بن العربي العواصم من القواصم ص ٥٣ ـ ٥٦ .

(١٣١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٥٣ .

(١٣٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٦ ؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ٧٥ ب.

(١٣٣) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٥٤.

(١٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٦ ـ ٣٧ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٧٥ب.

(١٣٥) ابن عذاري : المصدر نفسه ١/٣٧؛ النويري : المصدر نفسه جـ٢٢ ورقة ٧٥ ب.

(١٣٦) المالكي : رياض النفوس ١/٣٦؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/١٣٦؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٨؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٧؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٤.

(١٣٧) سورة المجادلة . آية ٢٢ .

(١٣٨) الفاسي : وصف إفريقية ٢/١٠٢ ، ١٠٣ .

(١٣٩) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ٢٢٣ .

(١٤٠) يذكر أنه لما أتى رسول حسان ـ خالد ـ وقف إليه في زي سائل، فعلم خالد أنه رسول فاعتذر له وقال له: تعود في غير هذا الوقت، فلما انفضّ المجلس أتاه وأخذ الكتاب منه (الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٢).

(١٤١) المالكي : رياض النفوس ١/٣٤ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٣.

(١٤٢) ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧ .

(١٤٣) وفي رواية «أن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم، وإنما ابتلينا بأمر أراد الله عز وجل أن يُكرم به من مضى ، فاطو المراحل وجدّ في السير، فإن الأمر لله ، ولن يسلمك إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله» (الأندلسي : الحلل السندسية في الأخبار التونسية جـ١ القسم الثاني ص ٥٣٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/٣٧ ؛ الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ١/١٨٣) وفي رواية أخرى «إن البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم في الرأي، وإنما ابتلينا بأمر قدّره الله وأكرم به من أراد منا الشهادة. . .» (الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٤). وقارن هذا بما ورد بالرحلة الورثيلانية ص ١٠٢ .

(١٤٤) الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٢ .

(١٤٥) نقرت الشيء : ثقبته بالمنقار (المعول)، أي جعل ثقباً في وسط قربوس السرج (ابن منظور : لسان العرب ٥/٢٢٧).

(١٤٦) الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٤ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٢ .

(١٤٧)ابن هشام السيرة النبوية ٢/٢٥٥ .

(١٤٨) لمعرفة التفاصيل عن هذا الصحابي الجليل. اقرأ كتاب العلاء بن الحضرمي في التاريخ: لمحمد الملحم، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(١٤٩) قرية قديمة من قرى الأحساء لا تزال بعض أطلالها ماثلة للعيان وفيها أطلال المسجد الذي أقيمت فيه ثاني جمعة في الإسلام، حسبما أوردته كتب الحديث وكانت الأولى في المدينة (البخاري : صحيح البخاري ١/٢١٥، ابن خزيمة : صحيح ابن خزيمة ٣/١١٣ ، ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٥/٦٩٥، العسقلاني : فتح الباري ٢/٣٧٩، القسطلاني : إرشاد الساري ٢/١٦٦ ، العبيد : الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية ١/٢٦١ .)

(١٥٠) ومن بينها : الجيش الذي خاض معركة ضارية في العراق سنة ٧٢هـ/٦٩١م ـ بقيادة عبدالملك بن مروان ـ أسفرت عن القضاء على مصعب بن الزبير وعودة العراق لحظيرة الخلافة الأموية وفي السنة ذاتها كان جيش آخر للخلافة يتوجه بقيادة الحجاج بن يوسف إلى مكة للقضاء على عبدالله بن الزبير الذي كان قد أعلن نفسه خليفة هناك . انظر التفاصيل في (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦/١٧٤ وما بعدها، المسعودي : مروج الذهب ٣/١٣٢ وما بعدها، الحنبلي : شذرات الذهب ١/١٧٩).

(١٥١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦/٢٤٢ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢/٢٧٤،

(١٥٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢١، الحنبلي : شذرات الذهب ١/ ٨٣.

(١٥٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٢٨٤ وما بعدها.

(١٥٤) حيث يقال أنه كانت بينهم نيف وثمانون وقعة (المسعودي : مروج الذهب ٣/ ١٦٠).

(١٥٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٧٩؛ ابن كثير : البداية والنهاية ٩/ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٥٧؛ الحنبلي: شذرات الذهب ١/ ٨٨ ـ ٩٠ ـ ٩٤.

(١٥٦) الطبري تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٣٢٢؛ الحنبلي : شذرات الذهب ١/ ٨٧.

(١٥٧) الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب ص ٥٧؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٦؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٦؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب جـ٢٢ ورقة ٧٥ أ.

(١٥٨) الرقيق : المصدر نفسه ص ٦١ حيث يقول: «أن من لقيه من الروم واستغاثوا به كانوا ثلاثمائة رجل».

(١٥٩) سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(١٦٠) مدينة تبعد عن القيروان بست مراحل، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان، وفيها مياه جارية وبها من البربر الكثير. . . (ياقوت : معجم البلدان ٤/ ٢٨٩؛ ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٢).

(١٦١) الرقيق : المصدر نفسه ص ٦١؛ سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص ١١٤.

(١٦٢) بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض السبخة (ياقوت : معجم البلدان ٤/ ٣٨٢).

(١٦٣) هي في بلاد الجريد من أرض الزاب الكبيرة، وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين (ياقوت : معجم البلدان ٤/ ٣٤٨).

(١٦٤) الرقيق : المصدر نفسه ص ٦٢؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٦؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب . . . ج٢٢ ورقة ٧٥ ب.

(١٦٥) المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٦؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٨؛ النويري : مخطوط نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٧٦أ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/ ١٨٧؛ الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب ١/ ٩٤؛ الطرابلسي : المنهل العذب ص ٤٠.

(١٦٦) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٤؛ المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٥.

(١٦٧) سورة البقرة آية ٢١٣.

(١٦٨) تقول الكاهنة «إني مقتولة وأرى رأسي تركض به الدواب مقطوعاً تمضي به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس وأراه موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث إلينا بهذا الرجل (المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٥؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/ ٦٦؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٣) وفي رواية «وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك المسلمين الأعظم الذي بعث حساناً». (ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٧ ـ ٣٨).

(١٦٩) هو التوهم في معاني الكلام والأمور، وهو يحمل معنى الظن والتخمين (ابن منظور : لسان العرب ٦/ ٤٦ ـ ٤٧).

(١٧٠) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٤؛ وزاد المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٤ «قد أقبلت عليكم».

(١٧١) ابن عبدالحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٦٤ .

(١٧٢) يقول المالكي «إن الكاهنة حينما طلب منها ـ خالد ـ الرحيل. قالت : كيف أفرّ وأنا ملكة والملوك لا تفرّ من الموت، فأقلّد قومي عاراً إلى آخر الدهر. .» (رياض النفوس ١/ ٣٦؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/ ٦٦).

(١٧٣) ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٨؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٤ .

(١٧٤) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٥٨ ؛ محمود خطاب : قادة فتح المغرب العربي ٢/ ١٩٦ .

(١٧٥) المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٥ .

(١٧٦) ذكر أنه في منتصف الطريق ما بين سوسة وصفاقس، وهو من أشهر حصون إفريقية وأمنعها، يبلغ علوه مائة ذراع، ودوره ميل، حوصرت فيه الكاهنة وهو بقايامسرح روماني قديم ضخم البناء، ويتكون من ست طبقات كلها من الحجر، وتوجد بجواره قرية عربية تسمى الجمّ، وهذه القرية أقيمت على أطلال مدينة رومانية تسمى تيدروس. انظر (الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٣٨، هامش رقم ٢).

(١٧٧) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ١/ ٢٢٥ .

(١٧٨) الدباغ : معالم الإيمان ١/ ٦٥ ـ ٦٦ .

(١٧٩) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ١/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(١٨٠) الدباغ : معالم الإيمان ١/ ٦٥ ـ ٦٦؛ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٥٩ .

(١٨١) ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٩ .

(١٨٢) الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص ٣١ ـ ٣٢ .

(١٨٣) المالكي : رياض النفوس ١/ ٣٦؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٦؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ٣٨؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/ ٦٧ ؛ الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ص ١٠٤ .

(١٨٤) يكنى أبا عبدالله، وهو من أهل أصبهان من قرية يقال لها (جيّ) كان قبل الإسلام على المجوسية، دخل الإسلام عن طواعية منه واختيار، لم يشهد بدراً وأحداً لأنه كان أيامها عبداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلمان سابق فارس. وقال سلمان منا أهل البيت، أشار على المسلمين بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي الدرداء فكانا يأكلا من صحفة فسبّحت الصحفة أو سبّح ما فيها، ، وهو رافع الألوية والأعلام . . . انظر (ابن قتيبة الدينوري : المعارف ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤/ ٧٥ وما بعدها؛ الأصفهاني : حلية الأولياء ١/ ١٨٥ ؛ الحنبلي شذرات الذهب ١/ ٤٤).

(١٨٥) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف . . . أحد العشرة المبشرين بالجنة يكنى أبا إسحاق، له من الولد : (إسحق الأكبر ودرج وعمر، ومحمد. آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب ابن عمير، وجمع له صلى الله عليه وسلم أبويه فقال له : ارم سعد فداك أبي وأمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، خُصّ بالإجابة في المسألة والابتهال ثم ابتلي في حالة الإمارة والسياسة، وامتحن بالحجابة والحراسة، ففتح الله على يديه السواد والبلدان. . (ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤١ ـ ٢٤٢؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/ ١٣٧ وما بعدها؛

الأصفهاني : حلية الأولياء ١/٩٢.

(١٨٦) هي في الجانب الآخر من دجلة في غربها : وهي تصحيف من أردشير (أي بلدة الملك آردشير الطيبة) وعلى فرسخ من أسفلها ساباط (كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٢).

(١٨٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٤/٥ وما بعدها؛ ابن الأثير : الكامل ٢/٣٥٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٦٤.

(١٨٨) المالكي : رياض النفوس ١/١٠ ـ ١١ .

(١٨٩) المالكي : رياض النفوس ١/٣٦؛ الدباغ : معالم الإيمان ١/٦٦.

(١٩٠) يقول ابن عذاري : «وأقام حسان بعد مقتل الكاهنة لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد» (البيان المغرب ١/٣٨).

المصادر والمراجع

١ - **ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي الجزري. ت ٦٣٠هـ).**
الكامل في التاريخ - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠٧هـ.
أسد الغابة في معرفة الصحابة - المطبعة الإسلامية - طهران.

٢ - **الأصفهاني (أبي نعيم أحمد الأصفهاني. ت ٤٣٠هـ).**
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠٩هـ.

٣ - **ابن الأعثم (أبي محمد بن أحمد. ت . ٣١٤هـ).**
الفتوح - حيدرأباد - الدكن - الطبعة الأولى - ١٣٨٨هـ.

٤ - **الآلوسي (السيد محمود شكري).**
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - الطبعة الثانية - بيروت.

٥ - **البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ).**
صحيح البخاري - طبعة إستانبول ١٩٧٩م.

٦ - **البكري (أبو عبيدالله بن عبدالعزيز ت. ٤٨٧هـ).**
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب «كجزء من كتاب المسالك والممالك» مكتبة المثنى، بغداد.

٧ - **البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى. ت ٢٧٩هـ).**
فتوح البلدان - بيروت - ١٤٠٣هـ.

٨ - **ابن تغري بردي (جمال الدين أبوالمحاسن يوسف . ت ٨٧٤هـ).**
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - القاهرة - ١٣٨٣هـ.

٩ - **الجنحاني (د. الحبيب).**
القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي.

١٠ - **الجيلاني (عبدالرحمن بن محمد).**
تاريخ الجزائر العام - الطبعة الثانية - بيروت - ١٣٨٤هـ.

١١ - **ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي . ت . ٣٨٠هـ).**
صورة الأرض - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

١٢ - **ابن خزيمة (أبي بكر محمد بن إسحاق ت ٣١١هـ).**
صحيح ابن خزيمة - تحقيق محمد الأعظمي - طبعة ١٤٠٠هـ.

١٣ - **خطاب (محمود شيت).**
قادة فتح المغرب العربي - الطبعة الأولى - بيروت - ١٣٨٦هـ.

١٤ ـ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ت. ٨٠٨هـ).
العبر وديوان المبتدأ والخبر . . بيروت ١٣٩٩هـ.
١٥ ـ ابن خياط (أبو عمر خليفة ت ٢٢٢هـ).
تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم العمري ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥هـ.
دائرة المعارف الإسلامية ـ أصدرها بالعربية أحمد الشنتناوي وآخرون ـ طبعة بيروت.
١٦ ـ الدباغ (عبدالرحمن بن محمد).
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ـ الطبعة الثانية ـ مصر ـ ١٩٦٨م.
١٧ ـ ابن أبي دينار (محمد بن أبي قاسم القيرواني ت. ١١١٠هـ).
المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ـ تحقيق محمد شمام ـ الطبعة الثالثة ـ تونس ١٣٨٧هـ.
١٨ ـ الرقيق (أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني).
تاريخ إفريقية والمغرب ـ تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ـ الناشر رفيق السقطي ـ تونس.
١٩ ـ الزاوي (الطاهر أحمد).
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٩م.
٢٠ ـ الزبيدي (محمد مرتضى).
تاج العروس من جواهر القاموس ـ طبعة بيروت ـ لبنان.
٢١ ـ زغلول (سعد).
تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م.
٢٢ ـ الزركلي (خير الدين).
الأعلام ـ الطبعة السابعة ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.
٢٣ ـ سالم (السيد عبدالعزيز).
تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ـ الطبعة الثانية ـ الإسكندرية ـ ١٩٨٢م.
٢٤ ـ السراج (الوزير محمد بن محمد الأندلسي).
الحلل السندسية في الأخبار التونسية ـ الجزء الأول ـ القسم الثاني ـ تقديم وتحقيق محمد حبيب الهيلة ـ تونس ١٩٧٠م.
٢٥ ـ ابن سعد (محمد . ت . ٢٣٠هـ).
الحلل السندسية في الأخبار التونسية ـ الجزء الأول ـ القسم الثاني ـ تقديم وتحقيق محمد حبيب الهيلة ـ تونس ١٩٧٠م.
٢٦ ـ ابن أبي الضياف (أحمد).
الطبقات الكبرى ـ طبعة بيروت ـ ١٣٨٠هـ.

٢٧ ـ **الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ).**
إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ تونس ـ ١٩٦٣م.
٢٨ ـ **الطرابلسي (أحمد بن النائب الأنصاري).**
تاريخ الأمم والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة بيروت.
٢٩ ـ **ابن عبدالحق (صفي الدين عبدالمؤمن ت ٧٣٩هـ).**
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ـ الباب العالي ـ ١٣١٧هـ.
٣٠ ـ **ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن عبدالله . ت ٢٥٧هـ).**
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الطبعة الأولى ـ بيروت ـ ١٣٧٣هـ.
٣١ ـ **العبيد (عبدالرحمن بن عبدالكريم).**
فتوح إفريقية والأندلس ـ تحقيق عبدالله أنيس الطباع ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.
٣٢ ـ **ابن عذاري (أبو عبدالله محمد المراكشي ت ٦٩٥هـ).**
الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٣هـ.
٣٣ ـ **العربي (أبوبكر).**
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ بريل ـ ١٩٤٨م.
٣٤ ـ **العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي. ت ٨٥٢هـ).**
العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ تحقيق محب الدين الخطيب.
٣٥ ـ **ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبدالحي ت ١٠٨٩هـ).**
فتح الباري بشرح البخاري ـ المكتبة السلفية ـ الرياض.
٣٦ ـ **ابن العماد الحنبلي (أبي الفلاح عبدالحي ت ١٠٨٩هـ).**
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ طبعة بيروت.
٣٧ ـ **الفاسي (الحسن بن محمد الوزان ت ٩٥٧هـ).**
وصف إفريقية ـ ترجمة عن الفرنسية : محمد الحجي، محمد الأخضر ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٨٣م.
٣٨ ـ **ابن قتيبة (أبي محمد عبدالله بن مسلم ت ٢١٣هـ).**
المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ الطبعة الرابعة ـ مصر.
٣٩ ـ **ابن قدامة (أبي محمد عبدالله بن أحمد ت ٦٢٠هـ).**
المغني ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.

٤٠ ـ **القسطلاني (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد ت ٩٢٣هـ).**
إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري ـ الطبعة السادسة ـ بيروت ـ ١٣٠٤هـ.
٤١ ـ **القضاعي (أبي عبدالله بن الأبار ت ٦٥٨هـ).**
الحلة السيراء ـ بيروت ـ ١٣٨١هـ.
٤٢ ـ **ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ).**
البداية والنهاية ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت ـ ١٤٠٩هـ.
٤٣ ـ **الكندي (أبي عمر محمد بن يوسف).**
الولاة وكتاب القضاة ـ تهذيب وتصحيح : رفن كست ـ القاهرة.
٤٤ ـ **كي لسترنج.**
بلدان الخلافة الشرقية ـ نقله إلى العربية : بشير فرنسيس كوركيس عواد الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ.
٤٥ ـ **اللميلم (عبدالعزيز بن محمد).**
حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ ١٤١٣هـ.
٤٦ ـ **ـ المالكي (أبي بكر عبدالله بن أبي عبدالله ت ٤٥٣هـ).**
رياض النفوس ـ الطبعة الأولى ـ تونس ـ ١٣٧٠هـ.
٤٧ ـ **الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ).**
الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ.
٤٨ ـ **المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦هـ).**
مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ.
٤٩ ـ **الملحم (محمد ناصر).**
العلاء بن الحضرمي في التاريخ ـ الطبعة الأولى ـ الهفوف ـ ١٤٠٩هـ.
٥٠ ـ **ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم ت ٧١١هـ).**
لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٧٤هـ.
٥١ ـ **مؤنس (حسين).**
فتح العرب للمغرب ـ القاهرة ـ ١٣٦٦هـ.
٥٢ ـ **الميلي (مبارك بن محمد).**
تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـ الجزائر ـ ١٩٦٣م.
٥٣ ـ **الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي ت ١٣١٥هـ).**

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ـ تحقيق : جعفر الناصري، محمد الناصري ـ الدار البيضاء ـ ١٣٧٣هـ.
٥٤ ـ **النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ت ٧٣٣هـ).**
نهاية الأرب في فنون الأدب ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ جزء رقم ٢٢ ـ رقم المخطوط بالدار ٥٤٧.
٥٥ ـ **ابن هشام (أبو محمد عبدالملك ت ٢١٨هـ).**
السيرة النبوية ـ الرياض ـ ١٣٥٦هـ.
٥٦ ـ **الورثيلاني (سيدي الحسين بن محمد ت ١١٩٣هـ).**
نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة (الرحلة الورثيلانية) الطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ.
٥٧ ـ **ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي . ت ٦٢٦هـ.)**
معجم البلدان ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ.
٥٨ ـ **اليعقوبي (أحمد بن اسحاق . ت ٢٩٢هـ).**
تاريخ اليعقوبي ـ دار بيروت .